الفصل الأول:

النبوَّة ومهام الأنبياء

أولاً: النبوة والرسالة

١- النبوة والاصطفاء

اصطفى الله آدم وذريته، وجعلهم خُلَفَاءَ الأرض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (آل عمران: ٣٣ - ٣٤)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠). إنَّ الهدف من استخلاف الإنسان ليس العبادةَ المُجَرَّدَةَ المُشَابِهَةَ لعبادة الملائكة وتسبيحهم، وتحميدهم الذي يأتي عن فطرة فُطِرُوا عليها، وطبيعة هُيِّئُوا بِمُقْتَضَاهَا لذلك، بل المقصود من استخلاف الإنسان هو الخلافة، والابتلاء، والتدافع الذي يُمحِّص الناس؛ ليتبين الأحسن عملاً والأصلح لوراثة الأرض في الدنيا، ولوراثة الجنة في الآخرة: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (الأنبياء: ١٠٦ - ١١٠).

هذا الاصطفاء يتعدى مفهوم عبادة الملائكة الذي يتضمن التسبيحَ والتحميدَ والركوعَ، وغيرَها من الأفعال التي تقوم بها الملائكة عبادة محضة وتقديسًا خالصًا، إلى عبادة تتضمن فعل العمران،[1] والقيام بحق الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

(١) هو المفهوم الخلدوني البديل لمصطلح الحضارة: فكل عمران حضارة ولا عكس، فالعمران بناء حضارة ربانيَّة تلاحظ منها رؤية كليَّة للإنسان والحياة والكون، وتلاحظ في تركيبها القيم وغايات الحق من الخلق. انظر أيضا:
- عارف، نصر محمد. **الحضارة-المدنية- الثقافة**، فرجنينا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤م.

ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢)، وأداء مهمة الاستخلاف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة: ٣٠)، لتحقيق الوفاء بالعهد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤). ومن هنا كان هذا الإنسان هو الأنسبَ والأَكْفَأَ، لأداء هذا الدورِ؛ فطبيعة خِلقَتِه وتكوينه، وتعليم الله ﷻ له الأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وَتَهْيِئَةُ الأدوات، والوسائل التي سيزوده بها سوف تساعده وتؤهله، لأداء هذه المهمة على الوجه الأنسبِ والأكملِ، فَصَوَّرَ الله الإِنْسَانَ وَخَلَقَهُ في أحسن تقويم، وَسَوَّاهُ قادرًا على الكتابة والقراءة، وَعَلَّمَهُ الأسماء كلها، وَعَلَّمَهُ بالقلم ما لم يكن يعلم، وكرمه وفضله، وسخر له الليل والنهار، وسخر له الشمس والقمر دَائِبَيْنِ، وآتاه من كل ما سأله، وعلمه كيف يسأله ويدعوه، لِيُؤْتِيَهُ سُؤْلَهُ ولِيُجِيبَ دُعَاءَهُ، وتَكَفَّلَ بهدايته وتوجيهه وتسديده، فأودع في فطرته ما يساعده على معرفة خالقه، وجعل فيه وسائل الإدراك، وطاقات الفهم، والاستنباط، والقياس، والقدرة على ما يمكنه من أداء دوره الخطير، وتنفيذ مهمته.

وقد بدأ الإنسان خطواته الأولى على هذه الأرض بعقل أحيائِيٍّ بسيطٍ بِدَائيٍّ قادر على النظر الحسيِّ إلى الموجودات والظواهر الكونيَّة، وافتراض قدرات خارقة فيها تفوق قدراته، فكان يتجه إلى الشمس والقمر، والمطر، ... ويشعر أنَّها كلها بالنسبة له أقوى وأكبر، وهو إليها أحوج، فعليه أن يستمد منها قوته ويرفع إليها حاجاته، وهو يتوهم أنه في حاجة أو خوف أو رجاء منها كلها أو من بعضها، وفي كل هذه الموجودات مصادر قوة ولا شك، وطاقة أودعها الله تعالى فيها. وهذا العقل البدائيُّ الأحيائيُّ ليس في مقدوره اكتشافُ العلاقاتِ الناظِمَةِ بين هذه الأجزاء أو الأحداث أو الظواهر، ليكتشف من خلقها بكل ما يتصف به من صفات

الكمال؛ لأن عقله الأحيائيَّ هذا وهو يتدرج من التفكير في الخلق للوصول إلى الخالق لم يتدرب بَعْدُ على ربط الجزئيَّات بالكلِّيَّات، وإدراك العلاقة بين ما يدركه حِسُّه وما لا يدركه، ومن هنا فقد فضَّل الله ﷻ إبراهيم واتخذه خليلاً، وعدَّه أبا الأنبياء لذلك الاكتشاف الذي وصل إليه، فنمط التفكير السائد آنذاك نمط أحيائي لم يكن ليعطي قدرة منهجيَّة تمكن من إدراكِ العلاقاتِ وتُبَيِّنُ الوحدةَ المنهجيَّة في الكون.

ولم يترك الله ﷻ الإنسان لهذه المعاناة، خاصَّة مع وجود الشيطان الذي يتربص به لإغوائه ودفعه إلى الانحراف قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ (الحجر: ٢٦-٥٠)، فتدارك ﷻ برحمته الإنسان، وعزَّز عقله البدائيَّ الأحيائيَّ ذلك بالنبوات والرسالات لِيَتْلُوَ عليه الأنبياءُ والمرسلون آيات الله، ويعلموه الكتاب والحكمة، ويدربوه على تزكية نفسه وتطهير ضميره، وإصلاح عمله، وتسديد مسيرته، لتنقطع بذلك كُلُّ حُجَجِهِ وأعذارُه، وينطلق في تحقيق مُهِمَّتِهِ في "التوحيد، والتزكية، والعمران" على الوجه الأكمل، ويحصل على جزائه على الوجه الأوفى الأتم في الآخرة.

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٦)، ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

ويمثل بذلك موكب النبوَّات وأُمَّتُهُمُ الواحدةُ في حياة البشريَّة الظاهرة المقابلة لمواكب إبليس والشياطين، فإذا كان الشيطان وحِزْبُهُ قد جعلوا كلَّ مهمَّتِهم في الحياة إلى يوم الدين دفعَ البشريَّة نحو الانحراف، فإنَّ مهمَّة الأنبياء الأولى هي إعانة البشريَّة على الاستقامة، وإذا كان الشيطان وحِزْبُهُ يواصلون العمل عَبْرَ القُرُونِ لاجْتِيَالِ البشر وضمِّهم إلى مواكب الرافضين للسجود، فإن مهمة الأنبياء هي مساعدة البشريَّة على القيام بالسجود، والانضمام إلى مواكب الساجدين، وإذا كان الوحي الإلهي الذي نَزَلَ صحائِفَ، وكُتُبًا، وألواحًا، ووَصَايَا قد تم التصديقُ عليه بالقرآن المجيد، فإنَّ القرآن قد صدَّق واسترجع وَهَيْمَنَ على تَجَارِبِ النبوات من قبل مع أُمَمِهِمْ، وبعد ذلك التصديق والهيمنة أمر القرآنُ رسولَ الله ﷺ بالاهتداء بِتَجَارِبِ النَّبِيِّين والمرسلين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ... ﴾(الأنعام: ٩٠)، وأعلن عن وحدة "أمة الأنبياء" في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ ﴾ (الأنبياء: ٩٢) منذ ذلك الحين والتاريخ البشريُّ يسطر صفحاته في تدافع أولياء الرحمن ضد أولياء الشيطان، والأجيالُ البشريَّةُ تَتَعَاقَبُ، والحضاراتُ تُبْنَى وتُبَادُ، والأيَّامُ تُتَدَاوَلُ بين الناس، والناسُ منهم القاسطون، ومنهم دون ذلك.

٢- النبي بين النبوَّة والبشريَّة

مما لا شك فيه أنَّ الرسالة الخاتمة قد استوعبت تجارب النبوات كلها، واستعرضت تاريخ الرسل مع أقوامهم، وأنواع خطابهم، والحوار والجدل الذي كان يدور بينهم وبين أقوامهم، وتنوعت خطابات الأنبياء، وتعددت مضامينها وفقًا لعوامل الاستجابة والرفض، والإقبال والصدور، والقبول والإعراض.

وقد عَرَضَ القرآن الكريم كثيراً من التجارب النبوية التي كانت في بعض الأحيان تُوَاجَهُ بالصُّدُودِ والإِعْرَاضِ، حتَّى إذا مات النبي ﷺ أو فُقِد اتخذ بعض الناس من قبره وَثَنًا قدسوه، وربَّما اتَّخذوه ربًّا أو إلهًا. ومن هنا كان حرص القرآن الكريم على ألا يتكرر هذا مع رسول الله ﷺ ومع قومه، فتناولت كثيرٌ من آيات القرآنِ الفَوَارِقَ الدَّقِيقَةَ وَالكَبِيرَةَ بَيْنَ النُّبوَّة والألوهية على الرغم من أنَّ كِلتيْهِمَا من عَالَمَي الأَمْرِ وَالغَيْبِ، لكي لا تكونَ هناك أَيَّةُ ثَغْرَةٍ للخلط بين المَفْهُومَيْنِ، وتَكْرَار أخطاء الأمم السابقة التي فقدت القدرة على إدراك الفوارق -بعد طول الأمد وقسوة القلوب- بين النبوة والرسالة، والربوبيَّة، والشفاعة، والألوهيَّة، والخالقيَّة، ومستويات الأمر والإرادة والمشيئة؛ فأخطأت السبيل وضلت الطريق وحولت النبوات والرسالات إلى وسائل للضلال عوضًا عن أن تكون وسائل هداية؛ ولذلك فقد أكد القرآن الكريم على بشرية الرسول ﷺ وعلى وجوب طاعته فيما يأتي به من الله ﷻ.

ومن هنا كذلك نستطيع أن نفهم كيف كان رسول الله ﷺ يحذر الناس من المبالغة في تعظيمه، ففي الوقت الذي ينهى الله ﷻ الناس عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ أو أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، ويحذرهم بأن ذلك قد يحبط أعمالهم، نجده ﷻ يؤكد بشرية رسوله، ونجده ﷺ يؤكد بشرية نفسه، كما ورد في رواية عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض وأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا

يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار."[1] وعن علقمة عن عبد الله، قال: "صلى رسول الله ﷺ فزاد أو نقص، فلما سلم قلنا: يا رسول الله هل حدث في الصلاة شيء؟ قال: لو حدث في الصلاة شيء أنبأتكموه، ولكني إنَّما أنا بشر أنسى كما تنسون، فأيكم ما شك في صلاته فلينظر أحرى ذلك إلى الصواب فليتم عليه، ثم ليسلم وليسجد سجدتين."[2]

وإذا ارتجف أحد أمامه من هيبته يسارع إلى تذكيره وتذكير من حوله بأنه ابن امرأة قرشية من شعاب مكة كما روي عن أبي مسعود قال: "أتى النبي ﷺ رَجُلٌ فكلمه فجعل تَرْعَدُ فَرَائِصُهُ فقال له: هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد."[3] وفي هذا الإطار نستطيع أن نقرأ سائر أحاديثه ﷺ خاصة التي سبقت انتقاله إلى الرفيق الأعلى على سبيل المثال: روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي،"[4] وقد حذر الرسول ﷺ من تعظيم قبره والمبالغة في ذلك، ونبه لذلك الخطيب الذي جمع بين اسمه واسم الله ﷻ في ضمير واحد، فعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلاً خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ قُل: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ -قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ- فَقَدْ غَوى."[5] كل ذلك من أجل

---

(١) البخاري، محمد بن اسماعيل. **صحيح البخاري**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب الحيل، باب رقم ١٠، ص١٣٣٠، حديث رقم: ٦٩٦٧.

(٢) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي**، تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٩٩٤م، كتاب السهو، باب التحري، ج٣، ص٢٨، حديث رقم: ١٢٤٢.

(٣) القزويني، أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. **السنن**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دمشق: دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩م، أبواب الأطعمة، باب القديد، ج٤، ص٤٣٠، حديث رقم: ٣٣١٢.

(٤) الشيباني، أحمد ابن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، تتمة مُسْنَدُ أبي هريرة، ج١٤، ص٤٠٣، حديث رقم: ٨٨٠٤.

(٥) القشيري، مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، كتاب الجمعة، باب: التحية والإمام يخطب، ص٣٣٦، حديث رقم: ٨٧٠.

ألا تتكرر المأساةُ، وتذهب أنوارُ النبوةِ، وتُحْجَبَ الهدايةُ عن البشرِ، وَيَنْسَاقُ الناس بالعواطف نحو الأنبياء، حتى يصل بهم الأمر إلى تأليههم وطلب الشفاعة منهم، وإشراكهم في الألوهيَّة أو الربوبيَّة أو الصفات.

وقد أصابت هذه الأمة في فترة من الفترات فتنة زادت من عوامل فُرْقَتِهَا، فمن أهل بادية يتحدثون عن رسول الله ﷺ وكأنه زعيم قبيلة لا يترددون بذكر اسمه المجرد عن وصف النبوة والرسالة وقرنه بلفظ ﷺ، وبين قوم يُضْفُون عليه صفاتٍ هي جزءٌ من صفات الألوهية والربوبيَّة، فيتوجهون إليه بكل شيء، ويجعلون منه مثل ما يجعل أصحاب الأوثان من أوثانهم معبودين، ليقربوهم إلى الله زلفى. ولو أن هذه الأمة تنبَّهت في فترات تاريخها اللاحقة كما تنبَّه أصحاب رسول الله ﷺ لأهمية المفاهيم وضبطها؛ لما وقعنا في كثير من الخلط الذي جعل من أبناء الأمة الواحدة شيعًا يُكَفِّرُ بعضها بعضًا دون سبب منطقيٍّ، وإذ إنَّنا بصدد ضبط المفاهيم، فمن الضروري أن نتوقف عند مفهومي النبي والرسول.

٣- مفهوم النبي

النبي في اللغة العربية: النبي بغير همز، فقد قال النحويون: "أصله الهمز"، واستدلوا بقولهم "مُسَيْلِمَةُ نبيء سوء." جاء في لسان العرب: "النبي المكان المرتفع، وقيل النبي: ما نبا من الحجارة إذا نَجَلَتْهَا الحَوَافِرُ، والنبي: العلم من أعلام الأرض التي يُهْتَدَى بها، قال بعضهم: ومنه اشتقاق النبي، لأنه أرفع خلق الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ (مريم: ٥٧)، وذلك لأنه يُهْتَدَى به."[١]

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، (د. ت.)، ج١٥، ص٣٠١ وما بعدها. وراجع أيضا:

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار صادر، ١٩٦١، ص٤٨١-٤٨٢.
- رضا، محمد رشيد. **الوحي المحمدي**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢٨.

والنبي هو الذي أنبأ عن الله، وهو وَصْفٌ مِنَ النَّبَأِ، وهو الخبر المفيد لمن له شأن مهم، والنبي بغير همز أبلغ من النبيء بالهمز؛ لأنه ليس كل مُنْبِئٍ رفيعَ القدرِ والمحلِ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال: "يا نبيء الله": "لَسْتُ بنبيء الله، ولكن نبي الله" لما رأى الرجل خاطبه بالهمز بُغْضًا منه. والنُّبُوَّةُ والنَّبَاوَةُ: الارتفاع، ومنه قيل: نبا فلان مكانه، وهي الشرف المرتفع عن الأرض، ويصح فيه معنى الفاعلِ والمفعول؛ لأنه مُنْبِئٌ عن الله تعالى وَمُنْبَأٌ منه، والنبي -بالتشديد- أكثر استعمالاً، أُبْدِلَتِ الهمزةُ ياءً، أو هو من النبوة والرِّفْعَةِ والشرف.(١)

"ويطلق النبي عند أهل الكتاب على الملهم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلة. وقيل: إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقًا أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا مَنْ أوحى الله إليه وحيًا، فإن أمره بتبليغه كان رسولاً، فكل رسول نبي، وَمَا كُلُّ نَبِيٍّ رسولاً،"(٢) قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨)، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ (مريم: ٥١)، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ (مريم: ٥٤)، وقال تعالى في ذكر اللفظين كذلك: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٤٨٢.

(٢) رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق، ص٢٨.

ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الحج: ٥٢-٥٥)، وقال سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب: ٤٠)، يقول رشيد رضا يدل على انقطاع النبوة والرسالة معًا بعد محمد ﷺ: "فكل من ادَّعى أو يدَّعي الوحي الشرعي من الله تعالى بعده فهو كذاب مضل، وقد ادَّعى النبوة كثيرون فظهر كذبهم". ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ (الأحزاب: ٧).

٤- مفهوم الرسول

أرسل الشيء أي أطلقه وأهمله، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ (مريم: ٨٣) ومعنى الإرسال: التسليط؛ قال أبو العباس: "الفرق بين إرسال الله عز وجل أنبياءه وإرساله الشياطين على أعدائه، أنَّ إرساله الأنبياء إنما هو وحيه إليهم أن أنذروا عبادي، وإرساله الشياطين تخليته وإياهم."[1] وجاء في المفردات: "أصل الرسل: الانبعاث على التُّؤَدَة، ويقال: ناقة رَسْلَةٌ سَهْلَةُ السَّيْرِ وإبل مَرَاسِيلُ مُنْبَعِثَةٌ انبعاثًا سهلاً، ومنه الرسول المنبعث". وتصور منه تارة الرفق فقيل: على رِسْلك؛ إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث، فاشتق منه الرسول، يقال تارة للقول المتحمَّل كقول الشاعر:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا ... ...

وتارة لمتحمِّل القول والرسالة، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (يوسف: ١٩)، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (يوسف: ٥٠).

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٨١ وما بعدها. راجع معنى الرسول والنبي في: - الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٢٦٧. حول معنى النبي: ص٦٨٨.

والرسول يقال للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقال: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الشعراء: ١٦)، وجمع الرسول: رسل، ورسل الله تارة يراد بها الملائكة، وتارة يراد بها الأنبياء، فمن الملائكة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ (الحاقة: ٤٠)، وقوله: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ... ﴾(هود: ٨١)، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ ... ﴾ (هود: ٧٧)، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ... ﴾ (العنكبوت: ٣١)، وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ (المرسلات: ١)، وقال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الزخرف: ٨٠)، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ (مريم: ١٩)، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الذاريات: ٣٢-٣٣)، ومن الأنبياء المرسلين في القرآن، قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة: ٣٣)، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ (الشعراء: ١٠٦-١٠٧)، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ (الشعراء: ١٢٤-١٢٥)، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (الشعراء: ١٤٢-١٤٣) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾(الأنعام: ٤٨)، فمحمول على رسله من الملائكة والإنس، والإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك في التسخير كإرسال المطر والريح:(١) ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ (نوح: ١١)، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ (فصلت: ١٦) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الذاريات: ٣٣)، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾(الأعراف: ٥٧).

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص١٩٥.

٥- الفارق بين النبوَّة والرسالة

فَرَّقَ القرآنُ الكريمُ بين النبي والرسول، فكلاهما مُوحَىً إليه، وَلَكِنَّ وَحْيَ الأول مختلفٌ عن وحي الثاني، فالوحيُ المُنَزَّلُ على الرسول هو رسالة تشريعية؛ أما الوحي المنزل على النبي فليس فيه تشريع جديد، إنما يتبع النبي تشريع الرسول الذي سبقه؛ والرسول والنبي مكلفان بتبليغ الوحي الموحى به إليهما ودعوة قومهما به، وبذا فإن وظيفة الرسول هي: التلاوة والتبليغ لما أنزل الله عليه من أوامر تشريعية، فيكون بذلك صاحب رسالة. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ (النور: ٥٤) وقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١).

أما وظيفة النبي فهي الدعوة والتعليم والقيادة للناس، كون النبوة مقامًا علميًّا، وبذا يكون النبي رسولاً تابعًا. وهذا المعنى جلي في نبوة موسى وهارون عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ (مريم: ٥٣)، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الشعراء: ١٢-١٣)، وقال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الشعراء: ١٦)، فهارون نبي وفي الوقت ذاته أرسله الله عز وجل مع موسى إلى فرعون وجعله وزيرًا لموسى يُؤَازِرُهُ فصار رسولاً أيضًا. فما الفرق بينه وبين موسى إذا كان كلاهما نبيًّا ورسولاً؟ الفرق بينهما هو أنَّ موسى أُوحِيَ إليه برسالة، بينمالم يُوحَ إلى هارون برسالة، وإنما هو تابع لرسالة موسى يدعو إليها؛ لذلك تم وصف هارون من حيث الوظيفة بمقام الوزارة. قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ (طه: ٢٩-٣٢) إذًا وظيفية الرسالة متحققة بالنبي الذي نزل عليه رسالة جديدة فصار بها رسولاً يدعو إليها، ومتحققة بالنبي الذي لم ينزل عليه رسالة مثل هارون من خلال دعوته للرسالة التي نزلت على أخيه فصار كلاهما رَسُولَ رب العالمين، وظلت هذه التَّفْرِقَةُ مُتَّضِحَةً في أنبياء بني إسرائيل، فَكُلُّهُمْ تابعون

لرسالة موسى لم ينزل عليهم أيّة تشريعات، وإنما نزل عليهم أوامر وتعليمات، ليقوموا بالإرشاد، والهداية، والتوجيه لرسالة موسى بمقتضاها، فكانوا بذلك العمل قد تحقق بهم صفة الإرسال، ولكن دون رسالة تشريعية، إلا النبي عيسى عليه السلام فقد صار بمقام الرسول صاحب الرسالة، وأخذ حكمهم من حيث الحفظ والعصمة من القتل.

وثمة فارق آخر بين النبوة والرسالة في القرآن الكريم عائد لمفهوم العصمة الربانية، فالأنبياء ليس لهم عصمة، فيجوز عليهم القتل مَثَلُهُمْ مَثَلُ سائر البشر كما حصل مع أنبياء بني إسرائيل، ففيهم من تعرض للقتل؛ وليس للأنبياء كذلك عصمة من سائر العوارض الإنسانية مثل الخطأ والنسيان والوقوع في المعصية؛ وذلك لأنهم يملكون إرادة حرة. والنبي كونه عالمًا بالله عز وجل فهو يعصم نفسه عن الكذب، والمعاصي، والفواحش عصمة إرادية نابعة من إيمانه بالله عز وجل؛ لذلك كان الأنبياءُ أفضلَ الناس وأعظَمَهُمْ شَأْنًا ويأتي بعدهم العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(فاطر: ٢٨)، وهذه العصمة الإرادية مطلوب من الناس جميعًا أن يتحققوا بها، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ...﴾(آل عمران: ١٠٣)، أما العصمة بالنسبة للرسول (صاحب الرسالة) فهي على وجهين:

الأول: عصمة من القتل وذلك لإتمام رسالته، وفي الحقيقة العصمة موجهة إلى الرسالة وليس إلى شخص الرسول، فكل رسول معصوم من القتل نحو الرسل أولي العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليهم، بخلاف الأنبياء.

الثاني: العصمة في عملية التلاوة لنص الرسالة، وهذا يقتضي حفظ النص في ذاكرة الرسول، وحفظ النطق في لسانه، حتى لا يتم أي خطأ في عملية التبليغ، ويقتضي ذلك عِصْمَتَهُ من أي عارض يؤثر على عملية تبليغه للرسالة أو القدح فيها نحو الأمراض الجلدية المنفرة أو الأمراض النفسية من هَذَيَانٍ وَهَلوَسَةٍ

وَسِحْرٍ وما شابه ذلك، فالرسول إذا فرغ من تلاوة الرسالة وعملية التبليغ ينتهي دوره بوصفه رسولاً، ويبدأ دوره بوصفه نبياً يقوم بالتفاعل مع الرسالة التي أنزلها الله كونه أول المكلفين بها عملاً ويدعو الناس إليها ويعلمهم الكتاب.

والنبوة لم تنف الصفة البشرية عن النبي، وإنما أضافت له مقامًا علميًّا، وعندما صار هذا النبي رسولاً لم تنتف عنه صفة البشرية ووظيفة النبوة، وإنما أضيف له مقام الرسالة مع الحفاظ على الصفات البشريَّة والنبويَّة قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾(الكهف: ١١٠)، وكون النبوة مقامًا علميًّا، والأنبياء سادة العلماء، فصفة الاجتهاد لهم أولى من العلماء، فالنبي أحق بالاجتهاد من العَالِم قطعًا، وإلاَّ صار العَالِمُ المجتهد أَفْضَلَ من النبي إذا سُلِبَ من النبي حَقُّ الاجتهاد، فالنبي يقوم بالاجتهاد في عملية الدعوة والتعليم، والاستنباط للأحكام والمعلومات من الرسالة السابقة، أما إذا كان هو رسولاً فيستخدم الرسالة التي أنزلت عليه.

ولوجود هذه الفروق من حيث الرسالة والعصمة والاجتهاد، صار اصطلاحًا أن الرسول التابع هو نبي، والنبي صاحب الرسالة هو رسول، ومن هذا الوجه ظهرت المقولة التي تقول: "إن كل رسول نبي ولا عكس"، رغم أن كليهما رسول من حيث الإرسال لهما من قبل الله للناس، وكلاهما مأمورٌ بالدعوة والتعليم والتبليغ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الحج: ٥٢).

ونخلص مما سبق إلى أنَّ النبوة مقام اصطفاء إلهي وليس اكتساباً، وهو مقام علم ودعوة وقيادة للناس، ويجوز على النبي ما يجوز على الإنسان تمامًا، وعصمته إرادية ليست ربانية، ويملك حق الاجتهاد كونه عالمًا، والرسول: مقام تكليف لتوصيل رسالة الله إلى الناس ليس له من الأمر إلا التلاوة والتبليغ، ومن ثمّ لا يحق له الاجتهاد في نص الرسالة، وهو معصوم في حفظه، ونطقه للرسالة

إضافة إلى عصمته من القتل لإتمام رسالته. وهذا التفريق بين مقام النبوة ومقام الرسالة يوصلنا إلى أن مقام النبوة مرتبط بشخص النبي نفسه، ومن ثمّ يفقد مقام النبوة فاعليته بموت النبي مثل النبي هارون، بينما مقام الرسول صاحب الرسالة مرتبط بالرسالة، فإذا مات الرسول لا تتأثر الرسالة لاستمرار وجودها وفصلها عن شخص الرسول، مثل الرسول موسى والتوراة، فيكون المجتمع الأول الذي عاصر نزول الرسالة علاقته مع مقام النبوة ومقام الرسول معًا، أما المجتمعات اللاحقة فعلاقتها مع الرسالة فقط دون النبوة لموت صاحبها. فالنبوة خاصة ومرتبطة بالزمان والمكان، أما الرسالة فهي عامة مستمرة بعد موت النبي صاحب الرسالة.

وبناء على ذلك التفريق نستطيع أن نقول: "إن نبوة محمد للعرب ورسالته للناس جميعًا، كما أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)"، أما عملية البعث فكانت في قومه ولهم؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة: ٢) فعملية البعث والإرسال أي النبوة والرسالة معًا كانت لقوم النبي والعرب ومن عاصره، أمَّا بعد موته فقد توقفت فاعلية مقام النبوة واستمر مقام الرسول الذي تَمَثَّلَ في الرسالة ذاتها، فكانت الرسالة للناس جميعًا دون النبوة، وهذا ما هو حاصل في الواقع من حيث انتشار الرسالة الممثلة بالقرآن على الناس جميعًا بخلاف حديث النبي فهو محل نقاش وقبول ورفض واختلاف بين المسلمين، وعندما تم اكتمال نزول الدين الإسلامي الذي بدأ في عهد نوح مرورًا بإبراهيم، وموسى، وعيسى، وانتهاءً بمحمد صلوات الله عليهم جميعًا اقتضى ختمُ النبوةِ انتفاءَ الحاجةِ لوجود الأنبياء واستمرت الرسالة الكاملة الخاتمة يحملها العلماء، ويقومون بدور الأنبياء كُلٌّ في زمانه وبحسب أدواته المعرفية، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ ويدعونهم إلى الحق والعدل، ويقومون بعملية الاستنباط من الرسالة؛ لإيجاد علاجات وأحكام للمستجدات في الحياة الاجتماعية.

وإن كُلَّ خطابٍ مُوَجَّهٍ إلى النبي صَرَاحَةً أو ضِمْنًا فهو خطاب تعليمي وتوجيهي للأحسن والأفضل، والحل الأمثل للظرف الراهن، وليس تشريعًا. أما الخطاب الذي يبدأ بفعل (قل) فيجب معرفة المقصد من خلال فحوى النص، فإن كان النص متعلقًا بأحكام نحو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ...﴾(البقرة: ٢٢٢)، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...﴾ (الأنفال: ١)، فالمخاطب بفعل (قل) هو الرسول، وإن كان فحوى النص تَوْجِيهِيًّا وَتَعْلِيمِيًّا نحو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (الإخلاص: ١)، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ (الناس: ١)، ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ (الزمر: ٦٤) فيكون المخاطب بفعل (قل) هو النبي، وإن جاء الخطاب مستخدمًا كلمة الرسول، فدلالة النص إن كانت متعلقة بأحكام أو بطاعة متصلة مع طاعة الله فيكون المقصود هو خطاب مقام الرسالة، وأمَّا إذا كان متعلقًا بتوجيهات وتعليمات أو تكرر بعد فعل الطاعة لله فالمقصد هو مقام النبوة، وما استخدام مقام الرسالة إلا مِنْ باب المخاطبة بالمقام الأعلى.

وفي هذا الصدد نُعَرِّجُ بالقول على مفهوم (العبقرية) الذي جرى خلطه بمفهوم النبوة في بعض الكتابات المعاصرة، فكما اختلط مفهوم النبوة والرسالة لدى أهل الكتاب فأدرجوا فيها الإلهام، والهواتف، والتأملات التي تأتي للإنسان وهو في صلاته أو عبادته، فضلوا بذلك وانحرفوا، ولم يعودوا يميزون بين وحي يوحى وهذه الأمور التي قد تَعْرِضُ لأي إنسان. كذلك اختلط الأمر على بعض المسلمين في العصور المتأخرة وعصور الجهالة لدين الله وشرعه، فتوهموا أن الزعامة، والذكاء، والعبقرية الشخصية من المهام أو الصفات التي جعلت الناس في الماضي يطلقون على هذا النوع من القادة أنبياء، ومرسلين في حين أنهم مجرد عباقرة، أو زعماء قوميين أو إقليميين جاءوا؛ لإنقاذ أقوامهم، وشعوبهم أو توحيدهم، فسووا بذلك بين العبقرية والذكاء وهي صفات عامة مشتركة يتصف بها الناس كسبًا أو موهبة والنبوة أو الرسالة التي هي شأن من شؤون الغيب، ولا دخل للكسب الإنساني فيها، فليست هناك معاهد أو أماكن لتأهيل أنبياء أو رسل،

وليست هناك برامج إنسانية محددة لإيجاد أنبياء ومرسلين، بل هي اصطفاء إلهي واختيار رباني، فالنبي أو الرسول لا يدري قبل أن يتم اصطفاؤه أنه سيكون نبيًّا أو رسولاً، ولم يَتَشَوَّفْ لذلك ولم يحاول امتلاكَ مُؤَهِّلات، ولم يتقدم بطلب إلى الله تعالى، ليتخذه نبيًّا أو رسولاً قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾(الحج: ٧٥)، وقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴾(الأنعام: ١٢٤)؛ لذلك فإن من أخطر محاولات التزييف تلك المحاولات التي قام بها بَعْضُهُمْ جهلاً مدحًا للنبي ﷺ، فأقر بالعبقرية لينفي النبوة والرسالة، ولينفي الجانب الغيبي دون أن يُتَّهَمُوا بإنكار النبوةِ والرسالةِ؛ لذلك فإنه من الضروري التَّنَبُّهُ لمفهوم النبوة، والرسالة، والوحي والإيمان كما جاءت في كتاب الله لا بالمفهوم الذي أراده أولئك المحرفون.(١)

ثانياً: الأنبياء في القرآن

جاء القرآن الكريم، ليحفظ تراث النبوات السابقة، ويبرِّئ ساحة الأنبياء الذين اتهموا بطلانًا وزورًا بشتى الاتهامات، وبذلك يمنح القرآن الإنسانيةَ صورًا لنماذج بشرية فذة في عصور مختلفة ومتنوعة في بِنْيَتِهَا، ولا يُبْقِي للبشر حُجَّةً تُسَوِّغُ ارتكابَ الشرِّ واتِّبَاعَ الشيطان، فيؤكد على بشرية الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ﴾ (الأنبياء: ٧-٨)، بل ورسم القرآنُ الكريمُ وهديُ النبي ﷺ الخطوطَ الرئيسةَ في منهج التعامل مع الأنبياء؛ إذ تمثِّل قصصُ الأنبياءِ القرآنيَّةِ مؤشراتٍ مَنْهَاجيَّةً في طرحها لمواقفَ معيَّنةٍ تعكس عُمْقَ التصورات العامة، كما تَسْتَبْطِنُ في الوقت ذاته تفصيلات بنائية قادرة على استنباط أسس منهجية تمتد مساحة قابليَّتها في تكوين تصورات تساعد في تحديد معالم

(١) ونستطيع أن نضرب مثلاً بكتاب ميشيل عفلق (ذكر النبي العربي) الذي أكثر فيه من الثناء على النبي ﷺ حتى توهم أتباعه أنه قد صار مسلمًا مع أن إعجابه برسول الله ﷺ إنما هو إعجاب بزعيم قومي منقذ وبانٍ لأمة فقط.

المجتمعات الإنسانية التي تعامل معها الأنبياء في مختلف العصور، وقد وصف ﷺ ذلك البناء النبوي في ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ."[1] وذلك للاختلافِ البيِّنِ في نوعيَّة المجتمعات، وطبيعة التغيير المطلوب فيها، وقابليَّات النبي وقدراته البشرية في تنفيذ المهمة، ولذلك فقد أكد القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ على "عصمة الأنبياء" من ارتكاب الكبائر والذنوب العظيمة التي اتهم بها الأنبياء في بعض كتب أهل الكتاب حتى أنزلوا منزلة تَقِلُّ بِالدُّونِيَّةِ عن الإنسان العادي، ورسم تلك الصورة للأنبياء كانت لغاية في نفوس الأحبار وأتباعهم؛ كي يرتقوا بأنفسهم إلى منزلة الأنبياء فَيُحِلُّون ويُحَرِّمُونَ ما يشاءون، ولذلك جاء القرآن الكريم، ليطهرهم مما ابْتُلُوا به، ولِيُثْبِتَ "العصمة" للأنبياء والرسل فلا يَجْرُؤُ أحدٌ على اتهامهم بارتكاب الكبائر والفواحش، ويجعل كل من يخالفهم مخالفًا لشرع الله ودينه.

وعصمة الأنبياء من العقائد التي يطلب فيها اليقين، فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أي وجه جاء، وقد عد الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الأخبار التي يجب القطع بكذبها، هذا لو فرض اتصال الحديث، فما ظنك بالمراسيل والمعلقات؟ وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل، وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام، لا في أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالرسل وما جاؤوا به.[2]

فلكي تتحقق الغاية التي أرسل من أجلها الأنبياء وهي هداية الناس على ما تصلح به دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، ينبغي أن يكون هؤلاءِ الأنبياءُ أَهْلاً لأن يُقْتَدَى بهم في

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، ص٣٥٤٠، حديث رقم: ٣٥٣٥.

(٢) التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله. **شرح المقاصد**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٨م، ص٥٣.

أعمالهم، وسيرهم والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها عن ربهم، ويكونون مُنَزَّهِينَ عن كل ما يقدح في أشخاصهم أو يُخِلُّ برسالاتهم، ومعصومين من معصية الله بمخالفة وحيه إليهم؛ إذ لو عَصَوْهُ لكان أتباعُهُمْ مأمورين من الله بالمعصية؛ لأنه أمرهم باتباعهم وقال في نبينا ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال فيه أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧)، فحفظه ﷻ ووقاه من كيد أعدائه وتَدْبيرِهِمْ وَوَعَدَهُ بِذَلِكَ في قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة: ١٣٧) ومن تلك النماذج.

١- عيسى وأمه مريم عليهما السلام

قد يكون من أكثر الأنبياء تعرضًا في حقيقته للتشويه والتحريف سيدنا عيسى وأمه، فقد أورد القرآن الكريم تفاصيل دقيقة عن طبيعة حياتهما بأساليب متعددة منها المحاورة مع المعاندين الذين يجلونهما أكثر مما ينبغي، أو مع الذين لفقوا لهما التُّهَمَ، وكذلك قدَّم القرآنُ الكريمُ قِصَّةَ حَيَاتِهِمَا بشكل سَرْدٍ قَصَصِيٍّ سَلِسٍ، رَصَدَ فِيهِ أَهَمَّ الأحداث والتغييرات التي وقعت لهما، ومواطن العظة والاعتبار في قصة كل منهما كما جاء في سورة مريم (من أول السورة إلى آية٣٧)، التي تبدو مريم فيها وكأنها محور السورة، وعمودها ومدارها، وفيها تم التأكيد على براءتها واصطفائها على نساء العالمين، ونجد مثل ذلك في سورة آل عمران، ففيها التفاصيل الدقيقة عن أسرتها، وولادتها، وحسن نشأتها وتربيتها، ثم كفالة زكريا لها، فقدمت نموذجًا لنساء العالمين اللواتي يهيُّؤهنَّ الله لأدوار رسمها جل شأنه، تجعل من حياتهنَّ وسيرهنَّ نموذجًا للعالمين.[1]

(١) (البقرة: ٨٧، ١٣٦، ٢٥٣)، (آل عمران: ٤٥-٥٩، ٨٤)، (النساء: ١٥٧-١٧١)، (المائدة: ٤٦، ٧٨، ١١٠-١١٦)، (الأنعام: ٨٥)، (الأحزاب: ٧)، (الشورى: ١٣)، (الزخرف: ٦٣)، (الحديد: ٢٧)، (الصف: ٦، ١٤)، (التحريم: ١٢).

٢- سليمان بن داود

لقد اتُّهم سليمانُ بالسحر فَبَرَّأَهُ اللهُ في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (البقرة: ١٠٢).

ومن المؤسف أن بعض أهل الكتاب، وكثيرًا من المسلمين يذهبون بهذه الآية مذاهبَ شَتَّى، ومع ظهور المرادِ بِهَا وَبَيَانِ أن السحرَ مُمَارَسةٌ حدثت في عهد سليمان وعلى أيدي الشياطين، فإن كثيرًا من الناس يَرَوْنَ السحرَ حَقِيقَةً من الحقائقِ التي لا تزال قائمةً ولا تزال مُؤَثِّرَةً، ويَنْسَوْنَ أن رسول الله ﷺ قد أُرْسِلَ رَحْمَةً للعالمين، ومن الرحمةِ التي أُرْسِلَ بها أن رَفَعَ اللهُ عن البشرية كل ما كان من تداخل في هذه المجالات، وَحَرَّرَ الإِنْسَانَ من سائر المؤثرات المجهولة له، ولم يعد للجن ولا للشياطين من سلطان على البشر، ونفى الشيطانُ بِنَفْسِهِ ذلك عَنْ نَفْسِهِ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (إبراهيم: ٢٢). فكان المتوقعُ أَلا يَبْقَى بَعْدَ بَعْثَةِ نبي الرحمةِ أَحَدٌ يَرْهِنُ وِجْدَانَهُ وَقَلبَهُ لِجِنٍّ أو لشيطانٍ، لِيَكُونَ أسيرَ الخُرَافَةِ والشَّعْوَذَةِ، وصناعاتِ الجَهْلِ والأوهامِ.

كما أظهر القرآنُ الكريمُ جوانبَ مُضِيئَةً أُخْرَى من شخصية سليمان عليه السلام في حكمته، وحسن تدبيره للمُلكِ الذي وهبه إيَّاهُ اللهُ ﷻ وحسن شكره لله، بل

وحسن أسلوبه في الدعوة إلى الله ﷻ، وهكذا امتدت مساحة التعريف بسليمان في سُوَرٍ وآياتٍ عديدةٍ في النمل، والأنبياء، وسبأ، وص وغيرِها.

وكذلك فعل القرآن الكريم مع إبراهيم، ونوح، وموسى، وإسماعيل، وزكريا، ويحيى وغيرهم؛ ليجعل من سيرهم نَمَاذِجَ بَشَرِيَّةً يُقْتَدَى بها في تثبيت القِيَمِ العُلْيَا التي تُعَدُّ أَسَاسَ العُمْرَانِ الإنساني على وجه الأرض إلى يوم القيامة.

*** فما علاقة النبي محمد ﷺ بمن سبقه من الأنبياء؟**

لقد لخص القرآن الكريم هذه العلاقةَ بمواضعَ مختلفةٍ، كُلٌّ مِنْهَا يُمَثِّلُ مِحْوَرًا من محاور تلك العلاقة التي تتشعب امتداداتُها ما بين العام والخاص، والمُجْمَلِ والمُفَصَّلِ؛ إذ يتمثل إطارُ العلاقة في قوله ﷻ في سورة الأنبياء حينما طافت آياتُ السورةِ على كثير من الأنبياء والمرسلين ما بين تفصيل وإجمال،(١) وخُتِمَتْ تلكَ الجَوْلَةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء: ٩٢)؛ فالأنبياء أمةٌ واحدةٌ في طبيعة رسالاتهم ومَصْدَرِيَّتِهَا الإِلَهِيَّة، وأُسُسِ دَعْوَتِهَا إلى إقامةِ القِيَمِ العُلْيَا، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ الإنسانية؛ لِإِقَامَةِ أَرْكَانِ العُمْرَانِ في الأرض.

وقد بيَّن القرآنُ الكريمُ جوانبَ الاشتراكِ والاختلافِ كما بيَّن الثوابتَ والمتغيراتِ في رسالاتِ الأنبياءِ والرُّسُلِ؛ إذ أكد على أربعة أبعاد مهمة: العقيدة، والقيم والأخلاق الإنسانيَّة، ثم الشريعة والمعاملات، فتشترك دعواتُ الأنبياءِ جميعًا في جَانِبَي العَقِيدَةِ والقِيَم، فجميعُ الأنبياءِ يدعون إلى عبادة الله الواحد الأحد وتثبيت القيم العليا، وهذا ما أكدت معانيه في مواضع عديدة آياتُ القُرْآنِ المجيدِ خَاصَّةً في سورة الأنبياء في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (النحل: ٣٦)، فيكون حَيِّزُ

(١) (الأنبياء: ٤٨-٩٢).

الاشتراكِ في الأصولِ والمشتركات كما قال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ (الشورى: ١٣).

أما التفاصيلُ والتَّشْرِيعَاتُ فَتَخْتَلِفُ من شريعةٍ إلى أخرى؛ إذ تَسْتَبْطِنُ مَعَانِيَ المُرُونَة؛ لتترك مجالاً للاجتهاد الإنسانيِّ في تعامله مع مُتَغَيِّراتِ الزمان والمكان، وَبَيَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ (المائدة: ٤٨). وهكذا أكد ﷻ في إطار "الوحدة النبويَّة" أنه ما كان محمد ﷺ بِدْعًا من الرسل، وإنما هو خَاتَمُ الأنبياء، وهذا ليفتح بَوَّابَةِ المُحَاوَرَةِ مع أهل الكتاب من جهة، ومع الذين يزعمون أنهم أتباعُ إبراهيم من جهة أخرى.

*** تعبّد النبي ﷺ قبل النبوة أكان بشرع من قبله؟**

أثار الأصوليون هذا التَّسَاؤُلَ حول تَعَبُّدِ النَّبِيِّ بشرع مَنْ قَبْلَهُ قبل البعثة وبعدها،(١) وذلك لما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تؤكد وَحْدَةَ دَعْوَةِ الأنبياء -كما ذكرنا آنفًا في وَحْدَةِ الأصول- ولذلك انقسم الأصوليون في هذه القضية الخلافيَّة إلى من نَفَاهُ، ومن أثبته، ومنهم من توقف، وظهر الإشكالُ هنا نظرًا لاختلالٍ في فَهْم السياق القُرْآنيِّ؛ إذ اسْتَدَلَّ القائلون بالإثبات بقوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين. **المحصول في علم الأصول**، دراسة وتحقيق: طه جابر العلواني. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٢م، ج٣، ص٢٦٣-٢٧٥.

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (المائدة: ٤٤)، وقوله ﷻ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(الأنعام: ٩٠)، وقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء: ١٦٣)، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ (النحل: ١٢٣)، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (الشورى: ١٣).

وكما ذكرنا آنفًا وردت هذه الآياتُ لِتُؤَكِّدَ على وَحْدَةِ الأُصُولِ في الإيمانِ باللهِ وَحْدَهُ والعِبَادَةِ والقِيَمِ والأخلاقِ التي دُعِيَ إليها جَمِيعُ الأنبياءِ، وذلك لإلزَامِ أهلِ الكِتَابِ بقبول الهُدَى وَالنُّورِ الَّذَيْنِ جاء القرآنُ بهما، كما جاءتْ بِهِمَا الكُتُبُ السابقةُ إن كانوا حقا يؤمنون بها.

أمَّا في التشريعات فإن لكل نَبِيٍّ شِرْعَةً ومِنْهَاجًا، وَيَظْهَرُ هذا واضحًا عندما جاء عيسى؛ لِيُعْلِنَ لِبَنِي إسرائيل عن تخفيف الشريعة التي جاء بها موسى، وذلك للتأكيد على ملاحظة أهمية حَيِّزِ المُتَغَيِّرَاتِ في الحياةِ الإنسانيَّةِ، وإبْرَازِ دَوْرِ الإنسان في التعامل معها قال ﷻ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ (آل عمران: ٥٠)، ثم تختم الرسالات برسالة الرحمة والتخفيف فيقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨). ولذلك كانت خطورة تبني فكرة "شرع مَنْ قبلنا" تَكْمُنُ في ما يترتب عليها من نتائج قد تُعيدُ شريعةَ الإِصْرِ والأَغْلالِ -التي حرَّرنا اللهُ منها بشريعة الإسلام- إلى العمل.(١)

إِذَنْ نَسْتَطِيعَ القَوْلَ بأَنَّ الوحيَ الإِلَهِيَّ لِكُلِّ الرسل والأنبياء كان يقوم على أركانٍ:

أ- وَحْدَانِيَّةِ الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، فهذا الوحيُ عامٌّ في جميع أنواعه، وذلك أن معرفةَ وَحْدَانِيَّةِ الله تعالى، ومعرفة وجوب عبادته ليست مَقْصُورَةً على الوحي المُخْتَصِّ بِأُولِي العَزْمِ من الرُّسُلِ، بل يُعْرَفُ ذلك بالعقل والإلهام كما يُعْرَفُ بالسمع، فَإِذًا القَصْدُ التَّنْبِيهُ أَنَّهُ من المُحَالِ أن يكون رَسُولٌ لا يعرفُ وَحْدَانِيَّةَ الله تعالى ووجوبَ عبادته.

ب- التأكيد على بشرية الأنبياء وصدق رسالاتهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الكهف: ١١٠)، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (فصلت: ٦-٧)، وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ (يونس: ٢)، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (النحل: ٤٣)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٩).

---

(١) لمناقشة الآراء في هذه المسألة، انظر:

- الرازي، **المحصول في علم الأصول**، مرجع سابق، وأمهات الكتب الأصوليَّة الأخرى.

ت- أَمْر الأَنْبِيَاء بِاتِّبَاع ما يُوحَى إليهم: قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ (الأنعام: ١٠٦)، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزمر: ٦٥)، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (يونس: ٨٧)، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ (يونس: ١٠٩)، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الأحزاب: ٢)، ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ...﴾ (الزخرف: ٤٣-٨٩) ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩)، ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِيَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ (الأنعام: ١٤٥).

ثالثاً: مهام الأنبياء

إِنَّ لِلأَنْبِيَاء والمرسلينَ مَهَامَّ حَدَّدَهَا البَارِي ﷻ بِمُنْتَهَى الدِّقَّة لا يَمْلِكُونَ أن يَزِيدُوا فيها أو يَنْقُصُوا منها قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ (الأنبياء: ٧-٨)، ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ (الأحقاف: ٩)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ (فصلت: ٦). وقد يَحْمِلُ حُبُّ أُمَم الأَنْبِيَاء لهم وَظُهُورُ المعجزات على أيديهم بإذن ربهم إلى تَوَهُّم قُدْرَة النبي على ما لا يدخل تحت قُدْرَته البشريَّة، وهنا قد يَفْتَتِنُ بعضُ الناس فَيُخْرِجُونَ الأنبياءَ من دائرة البشريَّة، ويَقَعُونَ في نَوْعٍ من الشرك الذي جاء الأنبياء

والمرسلون للقضاء عليه، فكانت عمليَّةُ تذكيرِ الناسِ بِمَهَامِّ الأنبياء، وتحديدها بدقة في الرسالة الخاتمة أمرًا في غاية الأهمية، ولذلك وجدنا القرآنَ الكريمَ يُحَدِّدُ هذه المَهَامَّ بوضوح تامٍّ، ويضرب مثلاً بالأمم التي انْحَرَفَتْ تَصَوُّرَاتُهَا ورُؤَاهَا لِأَنْبِيَائِهَا، وَيُحَذِّرُ من الوُقُوعِ فيما وَقَعَ بِهِ أولئك، ويؤكد على بشرية الرسل وعصمتهم مع توضيح شَافٍ لمعاني معجزاتهم، ومَحْدُودِيَّةِ قُدُرَاتِهِمْ البَشَرِيَّةِ، وأن كُلَّ ما يجري على أيديهم من آيات إنما هي صنع الله تعالى وحده لا شريك له أجراها على أيديهم، لتأكيد صدقهم في دعواهم، لا يد لأحد منهم في شيء من ذلك؛ ولذلك فإن التَّوْكِيدَ على هذه المَهَامِّ واسْتِحْضَارَهَا على الدَّوَام يُعَدُّ واحدًا من أهم المؤشرات المنهجية التي تَسْتَدْعي الكشف عن معاني "السُّنَنِ النبويَّة" ومساحتها التشريعية.

لقد كانت كُتُبُ الأنبياء السابقين عِبَارَةً عن وصايا بالأحكام التي كانت تتنزل عليهم؛ لوعظ شعوبهم وتعليمهم كَيْفِيَّةَ ممارسة التعاليم المُوحَاة، وتَطْبِيقِ ما يمكن تسميته "بفقه التدين"، ولم تكن سُنَنُهُمْ مقصودةً لذاتها أو مُسْتَقِلَّةً عن كتبهم[1]، بل في حالة موسى وهارون، وبقية أنبياء بني إسرائيل يتضح صراحة أن هؤلاء الأنبياء كانوا يبلغون "الشعب" على حد تَعْبِيرِ التَّوْرَاةِ ما يُوحَى إليهم، وَيَحُثُّونَهُمْ على تنفيذه، ويَعِظُونَهُمْ، ويُحَذِّرُونَهُمْ من مخالفته، وكثيرٌ من نصوص التوراة تشير إلى أن الوحي كان ينزل على موسى ﷺ والشعب يسمع

(١) إن التحريف والخلط بين أقوال بعض الأنبياء وما نقلوه عن الله تعالى مما أوحي إليهم لم يحدث من النبيين أنفسهم ولا في جيلهم لكنَّه حدث من الذين كتبوا الكتب بعدهم بعقود أو قرون؛ ولذلك نسب الله سبحانه وتعالى التحريف إلى أولئك الكاتبين فقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقرة: ٧٩)، وبعض ذلك الخلط جاء بسوء نيَّة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (البقرة: ٤٢)، ومنه كتمان الحق الوارد فيما أوحاه الله إلى أنبيائه ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٦)، وقال جل شأنه في التحريف والتبديل المتعمدين: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (النساء: ٤٦) وبعضه يحدث عن إهمال ونسيان وتجاهل كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾(المائدة: ١٣)، ومن المعروف عند =

أو يشاهد،[1] كما يلاحظ أن علاقة الشعب الإسرائيلي مع الله ﷻ إنما هي علاقة حاكمية إلهية[2] مباشرة قائمة على الخوارق، يقوم الرسل فيها بدور الوزراء الذين يُبَلِّغُونَ الشَّعْبَ ما يأمر الله ﷻ ويرفعون طَلَبَاتِهِمْ إِلَيْهِ، بل أحيانًا لا يَبْرُزُ دَوْرُ الرسول إلا بِمَثَابَةِ صوتٍ أو مُوَصِّلٍ ما بين الله والشعب[3] فيأخذ الرسولُ دورَ المُتَلَقِّي والمسئولِ الأولِ عن التطبيق والاتباع والشارحِ لما يأتي في النص الإلهي.

رابعاً: مهام خاتم الأنبياء

المهمة الأولى: التلاوة

إنَّ الله ﷻ قد أمر نبيَّه الكريم بتلاوة القرآن كما أنزل إليه على الناس: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

= المتابعين لتاريخ العهدين القديم والجديد أنَّ العهد القديم (تناخ) هو عبارة عن مجموعة الأسفار التي جمعها رجال المجمع اليهودي الأكبر الذي تأسس عقب العودة من السبي البابلي، وكان يتألف من مائة وعشرين عضوًا أخذوا على عاتقهم النظر في شئون الشعب اليهودي. انظر:
- العلواني، طه جابر. **ابن رشد الحفيد: الفقيه والفيلسوف**، مراكش: جامعة القاضي عياض، ٢٠٠٦م، ص٧٣، ففيه تفاصيل مفيدة حول جمع كل من العهدين القديم والجديد، وراجع كتاب:
- فتاح، عرفان عبد الحميد. **اليهودية؛ عرض تاريخي للحركات الدينية في اليهودية**، عمان: دار عمار، ط١، ١٩٩٧م.

(١) سفر التثنية ٣، ٤ الإصحاح الخاص بالشريعة والوصايا العشر، والإصحاح٢٢ من سفر التثنية "الله وموسى في سيناء". انظر:
- الكتاب المقدس، مصر الجديدة: الطبعة العربيَّة، القاهرة: GC سنتر، ١٩٨٨م.

(٢) راجع:
- العلواني، طه جابر. **حاكمية القرآن لا الحاكمية الإلهية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧م.
- جعفر، هشام أحمد عوض. **الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية رؤية معرفية**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- العلواني، **ابن رشد الحفيد: الفقيه والفيلسوف**، مصدر سابق.

(٣) انظر ما أحلنا عليه من سفر التثنية.

openkan.com

(النمل: ٩١-٩٢)، ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾ (البقرة: ١٥١)، ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤ ﴾ (الجمعة: ٢-٤)، ﴿ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١ ﴾ (الطلاق: ١١). لقد بينت الآيات السابقة وغيرها من الآيات التي وردت في الإطار ذاته أن مهمة تلاوة القرآن الكريم من أولى مهام النبي ﷺ، وذلك ليمنح الإنسان في كل زمان ومكان القدرة على تدبره، واستخراج الحكمة والموعظة الحسنة؛ بحيث يستمر القرآن في عطائه للبشرية ما دام الإنسان يتلو هذا الكتاب، ويتدبر معانيه لتنفتح أمامه آفاق النظر والفكر لقراءة الكون ودراسة الواقع ومنهجه وحركته.

فقد أمر الله ﷻ نبيه الكريم ﷺ بتلاوة القرآن كما أنزل عليه: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ ﴾ (الكهف: ٢٧)، والتلاوة في القرآن لها أكثر من معنى فمن معانيها الاتِّباع والاقتداء مثل قوله ﷻ: ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ ﴾ (الشمس: ٢)، قال الراغب: "أراد به هاهنا الاتباع على سبيل الاقتداء والمرتبة، وذلك أنه يقال: إن القمر هو يقتبس النور من الشمس، وهو لها بمنزلة الخليفة، وقيل: وعلى هذا نبَّه قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ (يونس: ٥)، والضياء أعلى مرتبة من النور إذ كان كل ضياء نورًا وليس كُلُّ نور ضياءً."[1]

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٧٥

وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ (هود: ١٧) أي يقتدي به ويعمل بموجب قوله ﷻ: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٣) وتلاوة آيات الله تكون باتباعها والعمل بما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب.

ومن معانيها التنزيل مثل قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ (آل عمران: ٥٨) أي نُنَزِّلُه.

ومن معانيها القراءة مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ (يونس: ١٥)، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت: ٥١)، ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ (يونس: ١٦)، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (الأنفال: ٢).

وبذلك يتضح أن "التلاوة" في القرآن ليست مرادفةً تمامًا للقراءة، فالتلاوة تتضمن القراءة وتزيد عليها وليس العكس، فَكُلُّ تِلاوَةٍ قِرَاءَةٌ وليست كُلُّ قراءة تِلاوَةً.(١)

وَبِذَلِكَ نستطيع أن نفهم مُهِمَّةَ النبي ﷺ التي حددها له القرآنُ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (النمل: ٩١-٩٢)، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الكهف: ٢٧)، ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت: ٤٥).

وَيَمْتَنُّ اللهُ على عباده المؤمنين إذ جَعَلَ فيهم مَنْ يتلو عليهم آياته فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ

(١) المصدر السابق.

يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ (الجمعة: ٢-٤)، ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (الطلاق: ١١)، ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ (البينة: ٢-٣)، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقرة: ١٥١).

المهمة الثانية: التبليغ

من المهم استيعاب أن القرآنَ الكريمَ حين يستعمل الكَلِمَةَ العَرَبِيَّةَ ويُدْخِلُهَا في لِسَانِهِ القرآنِيِّ؛ فإنه يُخْرِجُهَا من موقع الكلمة البَسِيطَةِ إلى مَوْقِعِ المَفْهُومِ الغَنِيِّ بِدَلالاتِهِ وآفاقِهِ بحيث ينفتح على جملة من المعاني ما كانت تَرِدُ على الذهن قبل استعمال القرآن الكريم لها، ووضعها في نَظْمِهِ وسياقه، ومادة "بلغ" في الاستعمال القرآني لم تَعُدْ مُجَرَّدَ إيصال نَبَأٍ أو قولٍ ونقله من شخص لآخر، بل يوضح القرآنُ الكريمُ مَعَانِي مُهِمَّةِ (البلاغ) بأنها تبليغ الأنبياء أَقْوَامَهُمْ في شكل من أشكال البلاغ وأحيانًا -بِتَطْبِيقَاتِهِمُ العَمَلِيَّةِ- لأحكام الله ﷻ وفي الآيات التالية نموذجٌ ومثالٌ لتبليغ قَضِيَّةٍ حَسَّاسَةٍ للغاية بالنسبة لرسول الله ﷺ في إنزال وتبليغ حكم التَّبَنِّي، قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴾(الأحزاب: ٣٧-٤٨).

فهذه الآيات تؤكد أن التبليغَ مُهِمَّةٌ وَتَكْلِيفٌ للرسل يتجاوز التَّطَوُّعَ، بل وقد يكون أحيانًا فيما لا يرغب الرسول إطلاع الآخرين عليه، لكنه أمرُ الله الذي لا يَسَعُهُ التردد في تنفيذه حتى لو لم يصادف رغبته أو رضًا في نفسه. وفي هذه الآيات لم يكن الرسول ﷺ مجرد مُبَلِّغ لرسالة توسط بين مرسلها والمرسل إليه، بل كان مُبَيِّنًا للقول والفعل والعمل في كيفية تطبيق ما ورد في هذه الرسالة، وقطع دابر أي تساؤل حول عدم التطبيق وضرورته وحتميته، وتوضيح لموقعه

ﷺ هو الشاهد والمبشر والنذير والداعي إلى الله ﷻ بإذنه وهو السراج المنير الذي في ضوء هديه وسننه يتمكن المؤمنون من تحقيق مقتضيات هذه الرسالة في الواقع المعيش.

أمَّا البلاغ في اللغة هو من بَلَغَ، والبُلُوغُ وَالبَلاغُ في اللغة بمعنى الانتهاء إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنْتَهَى سواء أكان مكانًا أو زمانًا أو أمرًا من الأمور المقدرة، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ (النور: ٥٤)، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة: ٦٧)، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ (المائدة: ٩٢).

وهذا المعنى اللغوي يندرج تحت المفهوم القرآني من حيث إن الرسل الكرام حين يبلغون رسالات الله يبلغونها كاملةً؛ لتحقيق مقصد الحق منها ووضع الناس في إطارها الكامل؛ لأن المفهوم القرآني يتناول مع ما ذكرنا مما اشتملت اللغة عليه حُسْنَ التَّطْبِيقِ والتأسي، والتعليم، والتزكية.

المهمة الثالثة: البيان

نعني بيانَ القرآن للناس بحيث تزول الاختلافات بينهم في فهمه، أو تنخفض نسبتها بشكل كبير على الأقل، ويصبحون على بينة منه وقدرة على تطبيقه، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل: ٤٣-٤٤)، وهذا البيان إليهم يكون بالفعل والقول -والتقرير منه- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (النحل: ٦٣-٦٤)، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ

قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (المائدة: ١٥)، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ (المائدة: ١٩).

ولمفهوم البيان معانٍ من أبرزها معنيان:

أ- بَيَانٌ بالمعنى العام: وهو يشمل بيانَ ما يتعلق بالقضايا الأساسية التي اختلفت واضطربت حولها الأمم، مثل: (معاني الربوبية والألوهية والصفات) وغيرها من المفاهيم التي حصل الانحراف فيها نتيجة الانحراف عن رسالات المرسلين وسير الأنبياء.

ب- وبيان خاص يتناول ما يأتي:

- بيان الاعتقاد والشريعة الكاملتين العالميتين الصالحتين لكل زمان ومكان وإنسان؛ لانطلاقهما من منطلقات العموم والشمول، والتخفيف والرحمة، وحِلِّ الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الإصر والأغلال ووضع الحرج والاعتماد على حاكمية الكتاب، وختم النبوة، والجمع بين القراءتين بقراءة إنسانية واعية على دور المقروء والقارئ.
- بيان العبادات، وهو بيان تحتاجه البشريَّة من عهد الرسالة إلى يوم القيامة؛ إذ لا يجوز أن نعبد الله ﷻ كما نرغب ونهوى فنخترع العبادات التي نريد، بل يجب أن نعبده كما يأمر ويريد، فتلك هي العبادة الحَقَّةُ المقبولة.

كما أن من معاني البيان تبليغ وتبيين معنى الهيمنة بالقرآن المجيد على تراث النبوات -كلها- والتصديق عليه، ذلك التراث الذي تعرَّض للتحريف والتلاعب حين خان الأحبار والربانيون -الذين استحفظوا ذلك التراث- أمانتهم فحرفوا ما ائْتُمِنُوا عليه، ونسوا حظًا مما ذكروا به، فكانت مهمةُ خاتم النبيين مهمةً مُزْدَوَجَةً تشتمل على إخراج الأميين من الأميَّة؛ ليصبحوا أهل كتاب وهو

القرآن الكريم، وتبليغ أهل الكتاب كيفية هيمنة القرآن الكريم وتصديقه على الكتاب كله في إعادة قراءة تراث الأنبياء والمرسلين بقراءة قرآنية تنقل حقائق تلك النبوات، وما جاء به أصحابها إلى البشرية كافة، فكان رسول الله ﷺ بسيرته الكريمة خير نموذج بياني في حفظ ذلك التراث عَمَليًّا، وفي تنزيل آيات القرآن الكريم في -مجال رسالات وسِيَرِ الأنبياء- على الواقع الإنساني حيث قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (النمل: ٦-٧)، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢٣).

ولذلك لم يَكِل اللهُ ﷻ حفظَ كِتَابِهِ الأخيرِ إلا لذاته العَلِيَّة: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (القيامة: ١٧-١٩)، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩)، فكما لم يشرك الله ﷻ أحدًا في إنزاله، لم يشرك أحدًا في حفظه، وتلاوته على نبيه الخاتم، وبيان محكم آياته للناس، وإقرائه له عليه الصلاة والسلام فلا ينسى شيئًا منه، وجمعه وبيانه، ليكون بعد ذلك تبيانًا لكل شيء، وبذلك توحدت المرجعية البشرية في هذا القرآن، فهو الكتاب الخاتم، نزل على خاتم النبيين في البلد الحرام، وَهَيْمَنَةُ القرآن الكريم وتصديقُهُ مُطْلَقَانِ، فهو مُهَيْمِنٌ على السُّنَنِ وَالهَدْيِ النبوي ومُصَدِّقٌ عليها، والهيمنة على تُرَاثِ النبوات تعني الحَاكِمِيَّةَ عليه، والتصديق عليه: يعني إزالة كل ما تعرض أو يتعرض له تراث الأنبياء من تَحْرِيفِ الغَالِينَ، وانتحال المبطلين وتأويلات الجاهلين والمغترين، وإعادة تقديمه صادقًا منقى من ذلك كله.

المهمة الرابعة: النصح

وذلك مثل قوله ﷻ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٢)، ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٨) ومَجِيءُ

النصح بعد التبليغ يعني أنه ما دام قد بَلَّغَ فقد نصح، ولذلك جاء في آية أخرى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٩٣).

والنصح مفهوم قرآني يحمل معاني عدة منها ما يعمل الناصح على تحقيقه بتحري أفعالٍ وأقوالٍ إذا فعلها المنصوح كانت صلاحًا له، ويفعل ذلك وهو مُخْلِصٌ لا يستهدف إلا صَلاحَ مَنْ يَنْصَحُهُ؛ قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنعام: ٧٩). وإذا أراد الإنسان أن يجعل مَنْ يوجه له النصيحة يقبلها، ويدرك أن الناصح ما وجهها إليه إلا وهو يريد صلاحه وخيره وإفادته؛ قال له: إني لك ناصح لتأكيد سَلامَةِ قَصْدِهِ، وقد يقال للعسل المُصَفَّى: عسل ناصح أي لا غِشَّ فيه ولم يُخَالِطْهُ شيء؛ ولذلك أمرنا الله تبارك وتعالى حين نتوب أن نتوب توبة نصوحًا؛ أي خالصةً لوجهه الكريم، بحيث لا يعود التائب بعدها إلى مُقَارَفَةِ الذنب، ففيها معنى الإخلاص والإحكام والإتقان والتجرد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ... ﴾ (التحريم: ٨).

وفي اللغة أيضا استعملت بعض هذه المعاني في الحِسِّيَّاتِ والمَعْنَوِيَّاتِ فيقال: لَبَنٌ نَاصِحٌ وَنَصِيحٌ، وفلان ناصح؛ والأنبياء والمرسلون شَأْنُهُمْ النُّصْحُ، وفي الحديث الذي رواه مسلم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلنَا لِمَنْ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ."[1]

المهمة الخامسة: تعليمهم الكتاب والحكمة

جعل الله ﷻ من مهام نبيه ﷺ أن يعلِّم مَنْ أُرْسِلَ إليهم الكتابَ والحكمةَ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، ص٥٤، حديث رقم ٥٥.

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (البقرة: ١٥١)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ (الجمعة: ٢-٤).

وتعليم الرسول الكتاب للناس معناه أن يُعَلِّمَهُمْ به بطريقة تجمع بين الإعلام وبيان كيفية العمل بالكتاب، وذلك بأن يكون هو أَوَّلَ المُتَّبِعِينَ لهذا الكتاب؛ ولذلك فإن الرسل يحكمون على أنفسهم وسواهم بما جاءوا الناس به، وبذلك يحصل التعليم، فإنَّ الإعلام والتعليم أصل معناهما وَاحِدٌ إلا أن الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير وتمثيل حتى يحصل منه أثر في النفس.(١)

أمَّا الحكمة فهي -في نظرنا- مفهوم جامع يضم كل ما في الكون من موجودات وسُنَنٍ، ومعارف وعلوم، وخِبْرَاتٍ بحيث يصير الإنسان بعد تعلمها مع الكتاب جامعًا بين القراءتين قراءة الكتاب وهو الوحي وقراءة الكون؛ أي: معرفة ما فيه من الموجودات والسنن والقوانين، والمعارف، والعلوم. وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الحكمة بهذا المعنى؛ أي: كيفية الانتفاع مما أودع الله في الكون من هذه الأمور فيُسَايِرُونَهُ، ولا يُغَالِبُونَهُ أو يَغْفُلُونَ عنه.

المهمة السادسة: تزكية الناس بهذا القرآن

تزكية نفوسهم، وعقولهم، وحياتهم كلها -نُظُمًا وتشريعاتٍ وعلاقاتٍ ومعاملاتٍ-، وبذلك تتحقق المهام النبوية كلها: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة: ٢)، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٣٤٣.

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

المهمة السابعة: تعليمهم الاتباع

الاتباع في اللغة:[1] يقال تَبِعَهُ وَأَتْبَعَهُ قَفَا أَثَرَهُ، أو سار في أَثَرِه أو إِثْرِه، وذلك بِالارْتِسَامِ والائْتِمَارِ، يقال تَبِعَ المصلي الإِمَامَ: حَذَا حَذْوَهُ، وَاقْتَدَى به عن علم بما سَيَتَّبِعُ، ثم اختيار وإصرار وعزم من المُتَّبِع، وعلى ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (البقرة: ٣٨)، ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (يس: ٢٠-٢١)، ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (الأعراف: ٣)، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾(يوسف: ٣٨)، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (لقمان: ١٥)، ويقال: أتبعه إذا لحقه: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الشعراء: ٦٠)، ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (الكهف: ٨٩)، (﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾(القصص: ٤٢)، ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ (المؤمنون: ٤٤).

وَالاتِّبَاعُ يُشَارِكُ التقليدَ في كَوْنِهِمَا اتِّبَاعًا لشخص، ويُفَارِقُ التَّقْلِيدَ من حيث إنه يعتمد على مُلاحَظَةِ الدَّلِيلِ وَالحُجَّةِ؛ فاتباعُ الربانيين لم يكن على أنه اتِّبَاعٌ لأشخاصهم، بل كان لحجتهم فيما يقولون.

وفي جملة الآيات الآتية تَتَبَيَّنُ عمليةُ استعراض لِلسُّبُلِ المختلفة المعروضة (بين اتباع الهوى والعلم)، ثم تحليل فَرْضِيَّاتِهَا ونتائجها، كي تُسَهِّلَ عَمَلِيَّةَ الاخْتِيَارِ قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٠)، ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٨، ص٢٧ وما بعدها.

- الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د. ت.)، ج٥، ص٢٨٦ وما بعدها.

- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ص٧٢.

بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٤٥)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الرعد: ٣٧)، ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٠)، وقال تعالى في عملية عرض لنتائج اتباع الهوى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (غافر: ٤٧-٤٨)، قال تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (العنكبوت: ١١-١٢).

وتتضح معاني التخيير في الاتباع المعتمدة على التفكير، ثم نتائجه في المحاورة الآتية: قال تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ (الملك: ٧-١١)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ (الزمر: ١٥-١٨).

أ- مفردات منهج الاتباع السليم:

قال تعالى في رسم منهج الاتباع السليم المُعْتَمِد على العلم لا الهوى والظَّنِّ كما جاء على لسان إبراهيم: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ (مريم: ٤٣)، وجاء على لسان يوسف عليه السلام قال تعالى:

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ ﴾ (يوسف: ٣٧-٣٨)، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾ (الشورى: ١٤-١٥).

بعد ذلك يأتي عرض وتحليل الآراء المطروحة ومحاكمتها إلى العلم، ثم تفنيد ما كان منها معتمدًا على الظن والهوى، قال تعالى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ ﴾ (النجم: ٢٣)، ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠ ﴾ (النجم: ٢٨-٣٠)، ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ ﴾ (الجاثية: ١٨)، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾ (البقرة: ١٦٨). وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ ﴾ (النساء: ٢٦-٢٧). قال تعالى: ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ ﴾ (العنكبوت: ١١-١٢).

ب- اتّباع سبيل الأنبياء:

إنّ اتّباع الرسل تَسْري عليه نفس مفردات منهج الاتِّبَاعِ القرآني المُقْتَرَح من

تحري العلم فيما يطرح من قضايا؛ قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ (مريم: ٤٣)، ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

ثم حُرِّيَّة الاخْتِيَارِ لِلمُتَّبِع التي يظهر جَانِبٌ من معالمها في قصة هارون مع قومه: ﴿ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ (طه: ٩٠-٩٤).

ثم عَرْض وَتَحْلِيل نَتَائج الاخْتِيَارِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ (الطور: ٢١)، ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (لقمان: ١٥)، ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٩٥).

ت- اتِّباع النبي محمد ﷺ:

أمر الله ﷻ رسوله باتِّباع ما أُنْزِلَ إليه: ﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٦)، ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يونس: ١٠٩)، ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢).

القرآن الكريم: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ (القيامة: ١٨)، ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النحل: ١٢٣).

وأمر الذين آمنوا بمحمد رسولاً باتباع ما أُنْزِلَ إليه في عملية عَرْضٍ وَتَحْلِيلٍ عِلميَّةٍ للقضايا المطروحة للاتِّباع مع طلب التَّفَكُّر والتدبُّر في الأمر.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ... ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٦٥).

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٣)، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران: ٣١)، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨).

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ

تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (القصص: ٤٧-٥١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (النساء: ١٣٥)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٤).

المهمة الثامنة: تعليمهم الاقتداء به

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأنعام: ٨٩-٩٠)، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٤). القَوْدُ: نَقِيضُ السَّوْقِ، يَقُودُ الدَّابَّةَ مِنْ أَمَام وَالسَّوْقُ من خلف. وقاد البعير واقتاده: معناه: جَرَّهُ خَلفَهُ،[1] ومن المجاز أَقَادَ فُلانٌ إذا تقدم، وهو مما ذكر كأنه أعطى مَقَادَتَهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْ مِنْهَا حَاجَتَهَا، والقائد: القائد من الجبل أنفه أو قِمَّتُهُ، وكل مستطيل من أرض أو جبل على وجه الأرض، والقائد: أعظم فُلجَانِ الحَرْثِ، الأَوَّلُ من بَنَاتِ نَعْشٍ الصُّغْرَى، وهي من الكواكب الشَّامِيَّةِ، وهي أَقْرَبُ مَشَاهِيرِ الكواكب من القُطْبِ الشمالي وَعَدَدُهَا سَبْعَةٌ.[2]

والاقتداء يحمل معاني الاتِّباع في التعامل مع الحُجَج والأدلة المُقَدَّمَة من قِبَلِ القائد الَّذي يطلب الاقتداء به، سواء أكان نبيًّا أو دَاعِيًا للخير أو نَحْوَهُ، قال

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٧٠.

(٢) الزبيدي، **تاج العروس**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧٦ وما بعدها.

الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام: ٧٤-٩٠).

فالاقتداء هنا يعتمد على تقييم الأدلة المطروحة، وقوة حُجِّيَّتِهَا في الدرجة الأولى قبل الاقتداء بأيِّ إنسان، وهذا مَا حرص القرآن الكريم في تعليماته على تفنيد أقوال المُقْتَدِينَ دون تَقْيِيم لِلحُجَج، وإنَّما هُوَ اتِّباعٌ أعمى للشخص لا للفكر، ولذلك فقد سُمِّيَ هَذَا النَّوْعُ من الاقتداء "باتباع الهوى"، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ

كَفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٤).

المهمة التاسعة: تعليمهم الاهتداء بهديه

والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية أو الأخروية، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا ﴾ (الأنعام: ٩٧) وقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (النساء: ٩٨)، ويقال ذلك لِطَلَبِ الهِدَايَةِ نحو: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (البقرة: ٥٣)، ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ (البقرة: ١٣٧).

ويقال: المُهْتَدِي لِمَنْ يَهْتَدِي بِعَالِمٍ نحو: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (المائدة: ١٠٤) تنبيهًا إلى أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم، وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (يونس: ١٠٨)، فإن الاهتداء هنا يتناول وُجُوهَ الاهتداء من طلب الهداية وَمِنْ الاقْتِدَاءِ وَمِنْ تحريها، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل: ٢٤) وقوله: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (طه: ٨٢) فمعناه ثم أدام طلب الهداية ولم يَفْتُرْ عن تَحَرِّيهِ ولم يَرْجِعْ إلى المعصية.

وأما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٧) أي الذين تَحَرَّوُا الهدايةَ وقَبِلُوهَا وَعَمِلُوا بها.[1]

قال الأصفهاني: "الهِدَايَةُ: دَلالَةٌ بِلُطْفٍ ومنه الهَدِيَّةُ، وهَوَادِي الوُحُشِ أي مُتَقَدِّمَاتُهَا الهَادِيَة لغيرها". وخص ما كان دلالة بِهَدَيْتُ وما كان إِعْطَاءً بِأَهْدَيْتُ نحو أَهْدَيْتُ الهَدِيَّةَ وَهَدَيْتُ إلى البيت إن قيل كيف جعلت الهِدَايَةَ دَلالَةً بِلُطْفٍ، وقد

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٥٤١.

قال تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ (الصافات: ٢٣)، ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ (الحج: ٤)، قيل ذلك اسْتُعْمِلَ فيه استعمال اللفظ على التَّهَكُّم مُبَالَغَةً في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ (الانشقاق: ٢٤).

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه:

أ- الهداية التي عَمَّ بِجِنْسِهَا كُلَّ مُكَلَّفٍ من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية؛ التي أُعطي منها كُلَّ شيء بِقَدْرٍ فيه، بحسب احتماله كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ (طه: ٥٠).

ب- الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحوه وهو المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ (السجدة: ٢٤).

ت- التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المَعْنِيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ (محمد: ١٧)، وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ (التغابن: ١١)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ (يونس: ٩)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ (مريم: ٧٦)، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: ٢١٣)، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ (النور: ٤٦).

ث- الهداية في الآخرة إلى الجنة والمَعْنِيُّ بقوله تعالى: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥﴾ (محمد: ٥)، ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣).

وهذه الهدايات الأربعة مترتبة، فإن لم تحصل له الأولى لا تحصل الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن حصل له الرابع حصل له الثلاث قبلها، ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا الثالث، والإنسان لا يستطيع أن يَهْدِيَ أحدًا إلا بالدعاء، وتعريفِ الطُّرُقِ دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأول أشار تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ (الشورى: ٥٢)، ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾

(الأنبياء: ٧٣)، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ (الرعد: ٧) وإلى سائر الهدايات أشار الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(القصص: ٥٦).

وكل هداية ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ أنه مَنَعَ الظالمين والكافرين منها فهي الهِدَايَةُ الثالثة، وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٨٦﴾ (آل عمران: ٨٦).

وكل هداية نفاها الله عن قدرة النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غَيْرُ قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق والجنة كقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾(الأنعام: ٣٥)، ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾(النمل: ٨١) ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾(النحل: ٣٧) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(القصص: ٥٦)، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ (يونس: ٩٩).

وأمَّا قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾(الإسراء: ٩٧) أي من يطلب الهدى ويتحرَّاه هو الذي يوفقه الله ﷻ ويهديه إلى طريق الجنة، لا من ضاده فتحرَّى طريق الضلال والكفر كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٤﴾ (البقرة: ٢٦٤)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ (الزمر: ٣)، الكاذب الكفار هو الذي لا يُقْبَلُ هِدَايَتُهُ، فإن ذلك رَاجِعٌ إلى هذا وإن لم يكن لَفْظُهُ مَوْضُوعًا لذلك، ومن لم يَقْبَل هِدَايَتَهُ تَعَالَى لم يَهْدِهِ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ (الإنسان: ٣)، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ (البلد: ١٠)، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ (الصافات: ١١٨)، فذلك إشارة إلى ما عرف من طريق الخير والشر بالشرع والعقل، كما في قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾(الأعراف: ٣٠)، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(التغابن: ١١)، فهو إشارة إلى التوفيق المُلقَى في الرُوعِ فيما يَتَحَرَّاهُ

الإنسان، وإياه عَنَى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ (محمد: ١٧)، وعدَّى الهداية في مَوَاضِعَ بنفسه وفي مَوَاضِعَ باللام وفي مَوَاضِعَ بإلى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ (آل عمران: ١٠١)، ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ (الأنعام: ٨٧)، ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ (النازعات: ١٩-٢٠)، وأما ما عَدَّى بنفسه نحو: ﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾ (النساء: ٦٨) ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ (الفاتحة: ٦)، ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ (النساء: ١٧٥).

ولما كانت الهدايةُ والتعليمُ تَقْتَضِيَانِ شَيْئَيْنِ: تعريفًا من المُعَرِّفِ، وتَعَرُّفًا من المُعَرَّفِ، وبهما تتم الهداية والتعليم، فإنه متى حصل البَذْلُ من الهادي والمعلم، ولم يحصل القبول صح أن يقال لم يَهْدِ، ولم يُعَلِّمْ اعتبارًا بعدم القبول، وصح أن يقال هدى وعلم اعتبارًا ببذله، ولذلك صح أن يقال: إن الله ﷻ لم يَهْدِ الكافرين... ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧)، والأولى إذ لم يحصل القبول المفيد، فيقال: هداه الله فلم يَهْتَدِ: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ١٤٣)، فَهُمُ الذين قَبِلُوا هُدَاهُ، وأما قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ (الفاتحة: ٦) فقد قيل: إنه عَنَى به الهِدَايَةَ العَامَّةَ التي هي العقل وسُنَّةُ الأنبياء، وأَمَرَنَا أن نقول هذا بألسنتنا، وإن كان قد فعل، ليعطينا بذلك ثوابًا كما في أَمْرِهِ لنا أن نُصَلِّيَ على محمد وإن كان قد صلى عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ (الأحزاب: ٥٦).

والهُدَى والهِدَايَةُ في موضوع اللغة وَاحِدٌ ولكن الله قد خص لفظة الهدى بما تَوَلاهُ وَأَعْطَاهُ واختص هو به دون ما هو للإنسان نحو ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ (البقرة: ٢).

والاهتداء: يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار إما في الأمور الدُّنْيَوِيَّةِ أو الأُخْرَوِيَّة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ (الأنعام: ٩٧)، وقال الله

تبارك وتعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (النساء: ٩٨)، ويقال ذلك لطلب الهداية نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (البقرة: ٥٣)، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٧).

ويقال المُهْتَدي لمن يَهْتَدي بعَالِم نحو قوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (المائدة: ١٠٤) تنبيهًا إلى أنَّهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾(يونس: ١٠٨)، فَإنَّ الاهْتِدَاءَ هنا يتناول وُجُوهَ الاهْتِداء مِنْ طلب الهداية ومِنْ الاقتداء ومن تَحَرِّيهَا، وكذا قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل: ٢٤)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (طه: ٨٢) فمعناه، ثم أدام طلب الهداية، ولم يَفْتُرْ عن تحريه، ولم يرجع إلى المعصية.

وأما قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٧) إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٥)، أي: الذين تَحَرَّوُا الهداية وقَبِلُوهَا وعَمِلُوا بها.(١)

المهمة العاشرة: تعليمهم التأسِّي به

الأسْوَةُ كَالقُدْوَةِ، وَالقُدْوَةُ: هي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتِّبَاع غيره، ولم تُذْكَرِ الأسْوَةُ في القرآن إلا في ثلاثة مواضع: قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ

(١) المرجع السابق، ص٥٣٨-٥٤١.

وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ (الممتحنة: ٤)، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ (الممتحنة: ٦).

التأسي بالنبي وطرائقه:

وإذا كان القرآن الكريم قد اشتمل على كل ذلك الخير وما يزيد عليه، فإن الإنسان في حاجة ماسة إِضَافَةً إلى تلاوة العلم والحكمة، واغترافهما من كتاب الله ﷻ وفقًا للنموذج الماثل والقدوة المَنْهَاجيَّةِ الكاملة التي تزوده بِمَنْهَاجِيَّة التعامل مع القرآن الكريم، وتجسد أمامه قِيَمَ القرآن وتعاليمه، لتؤكد أن تلك التعاليم عملية، وأنه في مقدور البشر تطبيقها والقيام بها، وتريه أفضل، وأتم، وأبين، وأوضح أنواع التطبيق الكفيل بتزويد الإنسان "بفقه التنزيل" و"فقه التدين" لئلا تلتبس عليه السبل، وتختلط عليه الأفهام، فكانت سنة رسول الله ﷺ المهيمنة على سنن النبيين والمصدقة عليها، هي الحكمة المبينة بأفعال، وأقوال، وأحوال، وتقريرات رسول الله ﷺ لقيم القرآن، والموضحة لسائر نواحي "القدوة المنهاجية" "ومنهاج التأسي السليم"، فما اصطلحوا على تسميته بـ"السنة" هي بجملتها البيان، والتجسيد العملي في الواقع البشري المتحرك لآيات القرآن الكريم، ولذلك أجابت أُمُّنَا عَائِشَةُ عندما سئلت عن خُلُقِ رسول الله ﷺ: "قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قُلتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ القُرْآنَ."(١)

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (الحشر: ٧)، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، ص٢٩٣، حديث رقم: ٧٤٦.

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ (آل عمران: ٣١-٣٢)، وقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ (الفتح: ٨-٩)، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ (الفتح: ٢٨).

فهل التأسي يستلزم مَرْتَبَةً فوق الاتباع، أم هِيَ مَرَاحِلُ متُكَامِلةٌ تُكَمِّلُ بعضها بعضًا؛ كي تصل إلى تحقيق المقاصد والغايات المَرْجُوَّةِ في استيعاب وإدراك مَهَامِّ الرسل، وإمكانية تطبيقها على واقع البشر في مختلف الأزمان؟ وما الَّذي سينبني على عملية التفريق بين تلك المفاهيم، أو محاولة التأكيد على البناء التكاملي بينها، وخاصة أنَّه لا يُظْهِرُ القُرْآنُ الكريم فَوَاصِلَ بينها، أكثر من عرض قاعدة عامَّة للإنسان المخاطب، وهي التَّفَكُّرُ، والتَّدَبُّرُ، والتَّأَمُّلُ في المَنْظُومَةِ المَطْرُوحَةِ من قِبَلِ الرسل، كي يتمكن من الإبداع الواعي في الفهم والتنفيذ؟

وكأن التَّأَسِّيَ يستلزم مَرْتَبَةً فوق الاتِّباع، فالاتِّباعُ يتصور في نحو العبادات، وقد يحتاج الاتِّباعُ والاقتداء إلى المُشَاهَدَةِ الحِسِّيَّةِ... ولكن فيما يتجاوز العبادات -كما في مجالات المعاملات ونحوها- فيحتاج المرء فيها إلى التجريد.

والتأسي يقوم على النظر في أقوال وأفعال المُتَأَسَّى به على أنَّهَا كُلَّهَا مُسَبَّبَةٌ ومُعَلَّلَةٌ ومَقْرُونَةٌ بِحُكْم فلا ينظر إليها في جُزْئِيَّاتِهَا، وإنَّمَا يُنْظَرُ إليها على أنَّهَا أمور يمكن أن تُدْرَسَ وَتُحَلَّلَ، وقَوَانِينُ كُلِّيَّةٌ تنتظم جزئيَّاتها وَتُمَكِّنُ المُتَأَسِّي من البحث في الغايات والمقاصد في الأفعال والأقوال بعد وضعها في تلك الأُطُرِ الكُلِّيَّةِ.

المهمة الحادية عشرة: الهيمنة

الهيمنة بالقرآن المجيد على تراث النبوات -كلها- والتصديق عليه، ذلك التراث الذي تَعَرَّضَ للتحريف، والتلاعب حين خان الأَحْبَارُ وَالرَّبَّانِيُّونَ الذين اسْتُحْفِظُوا ذلك التُّرَاثَ أمانتهم فحرفوا ما ائْتُمِنُوا عليه، ونَسُوا حظًّا مما ذُكِّرُوا به، فكانت مُهِمَّةُ القرآن الكريم التَّصْدِيقَ والهَيْمَنَةَ على الكتاب كله في إعادة

قراءة تُراثِ الأنبياء والمرسلين بقراءة قُرْآنِيَّةٍ تنقل حقائق تلك النبوات وأصحابها كما هي في حقيقة الواقع، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (النمل: ٦-٧)، ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (القصص: ١-٣)، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (المائدة: ٢٧-٣١)، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (يوسف: ٣-٤)

ولذلك فلم يَكِلِ اللَّهُ -تعالى- حِفْظَ كتابه إلا لذاته العَلِيَّة: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (القيامة: ١٧-١٩) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩)، فكما لم يُشْرِكِ اللَّهُ تعالى أَحَدًا في إنزاله، لم يُشْرِكْ أحدًا في حفظه، وبيان مُحْكَم آياتِه للناس؛ قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٨)، ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الجاثية: ٦)، وقال: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ

هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَـٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَـٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٥-٥١).

وبذلك توحدت المرجعية البشرية في هذا القرآن، فهو الكتاب الخاتم نزل على خاتم النبيين في البلد الحرام؛ وَهَيْمَنَةُ القرآن الكريم وَتَصْدِيقُهُ مُطْلَقَانِ، فهو مُهَيْمِنٌ على السُّنَّةِ ومُصَدِّقٌ عليها، والهَيْمَنَةُ على تراث النبوات تَعْنِي الحَاكِمِيَّةَ عَلَيْهِ، والتَّصْدِيقُ عَلَيْهِ: يعني إِزَالَةَ كُلِّ ما تَعَرَّضَ أو يَتَعَرَّضُ له تراث الأنبياء من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويلات الجاهلين والمُغْتَرِّينَ، وإعادة تقديمه صادقا مُنَقًّى من ذلك كله.

خامساً: "الآية" بين الرسالات السابقة والرسالة الخاتمة

لقد اقتضت الحكمة الإلهية اصطفاء الأنبياء، ليكونوا وَسِيطًا يحملون إلى البشر وسائل الهداية والنور قال ﷻ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الحديد: ٢٥)، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد: ٣٨)، فالأنبياء والمرسلون من البشر في خلقتهم، ولكنهم مثل الملائكة في طاعتهم لله ﷻ، وقد جعل الله ﷻ النبوة في ولد إبراهيم ومن قَبْلِه في ولد نوح، ومن بَعْدِهِمْ مِمَّنَ اصْطَفَى بعلمه ﷻ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَـٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَـٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ

فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (الحديد: ٢٦-٢٨)، فهم عليهم السلام وإن كانوا من حيث الأبدان بشرًا، فَهُمْ مِنْ حيث الأرواح جزء من عالم الأمر الإلهي مُهَيَّأٌ لاستقبال الوحي بِتَأْيِيدٍ إلهي؛ إذ قد أُيِّدُوا بقوة روحانية وخصوا بها قال ﷻ في عيسى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾(البقرة: ٢٥٣)، وفي محمد ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٤)، وقد خصهم بهذا الروح، ليمكنهم من تلقي الوحي والروح من أمره بوساطة الملائكة، لما بينهم من الوساطة الروحانية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (الشورى: ٥١).

فالأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام يُلقُونَ، ويبلغون الناس ما نزل إليهم، لما بينهم وبين الناس من المناسبة البشرية، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام: ٩)؛ تنبيهًا على أنه ليس في قوة عامة البشر الذين لم يخصوا بذلك الروح بأن يستقبلوا رسالات الله إلا من طريق البشر، وينقل القرآن الكريم أن الناس في كل زمان كانوا يطلبون من الأنبياء "آية"، وكان الأنبياء يجيبون على هذا الطلب المعقول المنطقي بصورة إيجابية، عندما يكون الطلب مقدمًا من أناس يبحثون عن الحقيقة، أما إذا كان الطلب مقدمًا لأسباب أخرى مقابل قبول الدعوة واتباع النبي، فإن الأنبياء يترفعون عن قبول مثل هذه المساومة.

فالمعجزة أو الآية تنزل منزلة قول الله ﷻ: "صدق عبدي في ما يبلغ عني" لأن الآية أو المعجزة أمر لا يمكن لأي إنسان أو شيطان أو جِنِّيٍّ أو مَلَكٍ أن يأتي بها إلا بإذن الله ليؤدي هذا الدور.

فهل تُخْرِجُ المُعْجِزَةُ النَّبِيَّ من بَشَرِيَّتِهِ؟ وهل تَلغِي المُعْجِزَةُ دَوْرَ السُّنَنِ؟ وهل تستهدف شَلَّ العقل الإنساني عن الحركة أو الاستسلام التام؟ الجواب:

لا، وليتضح هذا لا بد من بيان حقيقة الآية أو المعجزة.

١- الفرق بين معاني الآية والمعجزة قرآنيًا

إن القرآن الكريم يدعو الآثار الخارقة التي يبديها الأنبياء بإذن الله للدلالة على صدق أقوالهم "آية"، ولكن الاستعمال المتداول لهذا المفهوم بين جميع كَوَادِرِ الأُمَّةِ الفكرية والشعبية هو "معجزة"؛[1] لأن هذه العلامات تُظْهِرُ عَجْزَ سائر الأفراد وضعفهم، ولقد أصبح من المتداول بين الناس استخدام مصطلح "معجزات الأنبياء" بدلاً من استخدام المفهوم القرآني "آيات الأنبياء"، فماذا ترتب على هذا الخلط بينهما فكريًا من سلب أو إيجاب؟ فَسَيَتَبَيَّنُ هذا من استقراء النصوص القرآنية، والمعاني اللغوية في الكشف عن ما استبطن من إشكاليات ونحوها بإذن الله. ويمكن القول: إن هذا الخَلطَ بين مَفْهُومَي الآية والمعجزة كَرَّسَ صِفَةَ التحدي والقَهْرِ في العقل الإنساني، في حين أن الأصلَ فيها أنها شاهد ودليل على صدق من أظهرها الله على يديه، والفرق بين التصورين كبير؛ ذلك أن مادة "العجز" تستثير في الإنسان طاقات المقاومة والرفض، في حين أن معنى الآية لا يسقط معنى الإعجاز ولا يتجاوزه، وإنما يستبطنه في إطار الدليل؛ لأن مهمة الآية أن تُهَيِّئَ الإنسان لِحُسْنِ الاسْتِمَاعِ والاستقبال ومن ثمّ قبول الرسالة والتصديق بالمرسل.

٢- المعجزة في اللغة والقرآن

جاء في اللغة: أَنَّ عَجُزَ الإنسان مُؤَخِّرُهُ وبه شبه مؤخر غيره، قال ﷻ: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ (الحاقة: ٧).[2]

والعَجُزُ: أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره كما ذكر في الدبر، وصار في التعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة،

---

(١) مطهري، مرتضى. **الوحي والنبوة**. طهران: وزارة الإرشاد الإسلامي، (د. ت.)، ص٩.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٣٢٢ وما بعدها.

قال ﷻ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ (المائدة: ٣١)، وأعجزت فلانًا وعجزته وَعَاجَزْتُهُ جعلته عاجزًا، قال ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ (الأنعام: ١٣٣-١٣٤)، وقال ﷻ: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ (يونس: ٥٣).

وتأتي "معجزين" بمعنى مُثَبِّطِينَ؛ أي يحاولون أن يُثَبِّطُوا الناس عن اتباع الأنبياء، مع تحليل القرآن الكريم لمراكز قوتهم في محاولة لإبراز مدى ضعفهم، وعجزهم عن مواجهة قوة الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ (هود: ١٩-٢٠)، ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ (هود: ٣٢-٣٣)، ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾ (النحل: ٤٦)، ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ (النور: ٥٧)، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢﴾ (العنكبوت: ٢٢).

وأمَّا قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ (سبأ: ٥)، ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾ (سبأ: ٣٨)، فـ(معاجزين) قيل معناه ظَانِّينَ ومُقَدِّرِينَ أنهم يُعْجِزُونَنَا لِأَنَّهُمْ حسبوا أنه لا يوجد بعث ولا نشور فيكون هناك ثواب أو عقاب، وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ (العنكبوت: ٤)، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾ (الشورى: ٣١)، ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١﴾

(الزمر: ٥١)، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ (الجن: ١٢)، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ (فاطر: ٤٤).

والعَجُوزُ سُمِّيَتْ لعجزها في كثير من الأمور، قال ﷻ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (الصافات: ١٣٥)، وقال ﷻ: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ (هود: ٧٢).

ومن هنا فمعاني المعجزة في القرآن الكريم ليس لها علاقة بالآيات التي جاء بها الأنبياء في تدعيم رسالتهم، بل ليس هناك أَيَّةُ إشارة تُشيرُ إلى تَرَادُفِ المَعْنَيَيْنِ، ولذلك فإن هذا الخَلطَ الاصْطِلاحِيَّ بين الاستعمال البشري لها مع ادِّعَاءِ تَرَادُفِهَا مع المفهوم القرآني، ثم اتخاذ المصطلح البشري بوصفها مسلَّمةً، لهو مؤشر إلى أهمية إعادة تحديد المفاهيم القرآنية، وفرزها عن المصطلحات البشرية، وإن مَصْدَرِيَّةَ تلك المَفَاهِيم هو اللَّهُ ﷻ مما يمنحها القدرة على التداخل والتكامل بصورة متوازنة، بحيث تُبْقِي على خصوصية كُلٍّ منها ومعناه دون أن تحول بين أن يحمل كل منها مَعَانِيَ المنظومة المَفَاهِيمِيَّةِ كلها، وهذا ما سيتبين لنا في استعراض معاني "آية" بإذن الله، كما أن بين تلك المفاهيم القرآنية عَلاقَةً تَكَامُلِيَّةً تشكل وحدة واحدة، فاستخدام أيّ منها يستدعي المفاهيم الأخرى، بالإضافة إلى المعاني التكاملية داخل المفهوم الواحد، كما أن المفاهيم القرآنية ترفض أيّة مفاهيم مستحدثة لا تستند إلى أصولها التكوينية وفلسفة معانيها المستبطنة في تلك المفاهيم، ولذا فإن محاولة غرس أي مفهوم من خارجها، يُفْقِدُ هَذِهِ المَنْظُومَةَ أَبْعَادَهَا المُتَكَامِلَةَ مما يُحْدِثُ لها تَشْوِيهًا وتَلبِيسًا يُفْقِدُهَا دَلالاتِهَا.(١)

ولعل من المفيد في مجال زيادة الإيضاح، واستكمال الفروق بين المفهومين أن نذكر نص القاضي الباقلاني في كتابه "البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحِيَلِ والكَهَانَةِ": يقول في تعريف المعجز وبيان حقيقته: "المُعْجِزُ

(١) انظر في هذا المجال التحليل القيم في بنية المفاهيم الإسلامية:
– عارف، نصر محمد. نظريات التنمية السياسية، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٢٤٩ وما بعدها.

الحَقِيقِيُّ: هو ما ينفرد الله ﷻ بالقدرة عليه، وقد ذكر له أربع خصائص بالإضافة إلى الخاصية الأولى، والمعجز الحقيقي لا يصح دخوله تحت قدرة الخلق من الملائكة والبشر والجن، واعتبر تفسير اللغويين للمعجزة بأنها ما يعجز عنه الخلق تفسيرًا صحيحًا على مُوجِبِ اللُّغَةِ ومُقْتَضَى المُوَاضَعَةِ، لكنه غلط فيما طَرِيقُ مَعْرِفَتِهِ النَّظَرُ والحُجَّةُ لِلظَّنِّ والتعليق أو الشبهة."[1]

كما خَطَّأَ القاضي جُمْهُورَ القَدَرِيَّةِ في تفصيلهم الذي ذهبوا إليه من أن المعجزة على ضربين: "الضرب الأول: يتفرد الله ﷻ بالقدرة عليه. الضرب الثاني: مدخل مثله أو ما هو من جنسه تحت قدرة العباد، غير أنه يقع من الله ﷻ على وجه يتعذر على العباد إيقاع مثله."[2] قلت: لعل ذلك هو الذي دفع بَعْضَ المُعْتَزِلَةِ إلى القَوْلِ بأن إعجاز القرآن، إنما تم بالصِّرْفَةِ، فكأن الله ﷻ صرف العرب وجعلهم عاجزين عن أن يأتوا بمثله، وإلا فقد كان لديهم القدرة على فعل ذلك. قلت: وهذا في غاية الخطر. وقد ذكر القاضي أربعة شروط لا بد من توافرها بالمعجز ليكون معجزًا.

بالإضافة إلى العنصر الأول وهو تفرد الله ﷻ بالقدرة عليه، ذكر ثلاثة شروط أخرى:

أ- أن يكون مما يخرق العادة وينقضها، "وهذا لا يعني خرق السنن الإلهية الكونية التي لا تبديل لها ولا خرق لقوانينها".

ب- أن يكون غير النبي عاجزا عن إظهار مثله.

ت- وأن يظهر المعجز على يد الرسول عند تحديه لمن أُرسل إليهم، وادعائه بأنه آية لنبوته.[3]

---

(١) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد. **البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة**، نشره: الأب ريتشارد يوسف إليسوعي، بغداد: منشورات الحكمة، توزيع بيروت: المكتبة الشرقية ساحة النجمة، ١٩٥٨م، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٧.

٣- الآية في اللغة

جاء في اللغة: أنّ الآية بمعنى العلامة، وقيل: الآية من التنزيل ومن آيات القرآن الكريم، قال أبو بكر: "سميت الآية من القرآن آية؛ لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام"، ويقال: "سميت الآية آية؛ لأنها من جماعة من حروف القرآن، وآيات الله عجائبه"، وقال ابن حمزة: "الآية من القرآن كأنها العلامة التي يُفْضَى منها إلى غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية، كما قال الشاعر: إذا مَضَى عَلَمٌ مِنْهَا بَدَا عَلَمٌ..." والآية: هي العِبْرَةُ، وجمعها آيْ، وقال الفراء في كتاب المصادر: الآية من الآيات والعِبَر، سميت آية كما قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ (يوسف: ٧)؛ أي أمور وعِبَرٌ مُخْتَلِفَةٌ.(١)

٤- مفهوم "آية" في أقوال رسول الله ﷺ

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعْطِيَ من الآيات ما على مِثْلِهِ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أوحاه الله إِلَيَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة،"(٢) وقد كان ﷺ كلما طالبه المشركون بآية احتج عليهم بالقرآن الكريم في جملته وبما فيه من أخبار الأولين والآخرين التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه من قبل، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ (الإسراء: ٨٨).

فلم يستخدم ﷺ لفظة معجزة، بل استخدم المفهوم القرآني ألا وهو (آية)، فلماذا؟ وكيف استبدل المسلمون المفهوم القرآني بمصطلح معجزة؟

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١٤، ص٥٦ وما بعدها.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: "بعثت بجوامع الكلم، ص1387، حديث رقم: 7274، انظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، وُجُوبِ الإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَنَسْخِ المِلَلِ بِمِلَّتِهِ، ص٨٥، حديث رقم: ١٥٢.

٥- مفهوم الآية في القرآن الكريم

قال الأصفهاني رحمه الله تعالى في معنى الآية: "هي العلامة الظاهرة، وقيل للبناء العالي آية نحو: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (الشعراء: ١٢٨)، وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما، عُلِمَ أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته؛ إذ كان حكمهما سواءً، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، فمن عَلِمَ مُلازَمَةَ العَلَم للطريق المُمَنْهَج، ثم وَجَدَ العَلَمَ عَلِمَ أنه وَجَدَ الطريق الممنهج، وكذا إذا عَلِم شيئًا مصنوعًا عَلِم أنه لا بد له من صانع. واشتقاق الآية إما من آيٍ فإنها هي التي تُبَيِّنُ أيًّا من أيٍّ"، والصحيح -كما ذكر الأصفهاني- "أنها مشتقة من التَّأَيِّي الذي هو التَّثَبُّتُ والإِقَامَةُ على الشيء، يقال: تأيَّ أي أرْفَقَ، أو من قولهم أَوِيَ."(١)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية: ٣-١٣).

٦- المعاني التي وردت بها (الآية والآيات) في القرآن الكريم

وهنا لا بد من التمييز بين الآية بوصفهاوحدة بنائية في القرآن الكريم والآية بدلالتها العقلية؛ فعلى الأول تكون كل جملة من القرآن دالة على حكم أو معنى

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ٣٣.

آية، سورة كانت أم فصلاً من سورة، وقد يقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية، وعلى هذا اعتبار آيات السور التي تعد بها السورة.

أ- آيات الكون وسننه المستمرة، كقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٤)، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (يوسف: ١٠٥)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الشورى: ٣٢-٣٥)، ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴿١٢﴾ ﴾ (الإسراء: ١٢)، ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الشعراء: ٧-٨)، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الروم: ٢٠-٢٥)، ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ

لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية: ٣-١٣)، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ (غافر: ٧٩-٨١).

ب- الآيات الاجتماعية في قصص الأنبياء: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ (العنكبوت: ١٤-١٥)، ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الروم: ٩-١٠)، ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾﴾ (سبأ: ١٩).

ت- آيات القرآن المجيد: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾﴾ (النمل: ١)، ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾﴾ (الحجر: ١)، ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾ (الرعد: ١)، ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ (الشعراء: ٢) و (القصص: ٢)، ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨-٥١)، ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (البقرة: ٩٩)، ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ (النور: ١)، ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ (البقرة: ٢٥٢)، قال

تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الجاثية: ٦)، ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٥٨)، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٨)، ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (آل عمران: ١١٣)، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ (النساء: ١٤٠)، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقرة: ١٥١)، ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾ (الطلاق: ١١)، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ (الفرقان: ٧٣)، ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأحزاب: ٣٤)، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ (الأحقاف: ٧)، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سبأ: ٤٣)، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (القصص: ٤٤-٥٠).

٧- آيات الأنبياء

وذكر في مواضع آية، وفي مواضع آيات وذلك لمعنى مخصوص ليس هذا الكتاب موضع ذكره، وإنما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ... ﴾ (المؤمنون: ٥٠)، ولم يقل آيتين؛ لأن كُلَّ وَاحِدٍ صار آيَةً بالآخر.(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾(الإسراء: ١٠١)، ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾(النمل: ١٢)، ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ ﴾ (هود: ٥٩)، ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (العنكبوت: ٢٤)، ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (العنكبوت: ٣٣-٣٥)، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ (إبراهيم: ٥)، ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (القصص: ٣٥-٣٦)، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأعراف: ٧٣)، ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ (هود: ٦٤). وهنا الآيات تأتي لإقامة الحجة على الناس وَقَطْعِ أَعْذَارِ أَقْوَامِ الأَنْبِيَاءِ، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (الأنعام: ٤)، ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (المائدة: ٧٥)، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (طه: ١٣٣-١٣٤)،

(١) المرجع السابق، ص٣٣.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس: ١٠١)، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ (هود: ٥٩)، ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ (الجاثية: ٨)، ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ (غافر: ٤)، ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر: ٣٥)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ (غافر: ٥٦)، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (غافر: ٦٢-٦٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (غافر: ٦٩)، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (العنكبوت: ٢٣).

٨- آيات التخويف والتحدي

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء: ٥٩)، فالآيات ههنا قيل إِشَارَةٌ إلى الجراد، والقمل، والضفادع ونحوها من الآيات التي أُرْسِلَتْ إلى الأمم المتقدمة، فَنَبَّهَ أن ذلك إنما يفعل بمن يفعله تخويفًا، وذلك أَخَسُّ المنازل للمأمورين، فإن الإنسان يتحرى فعل الخير لأحد ثلاثة أشياء: إما أن يتحراه لِرَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ وهو أدنى منزلةً، وإما أن يتحراه لطلب مَحْمَدَةٍ، وإما أن يَتَحَرَّاهُ للفضيلة وهو أن يكون ذلك الشيء في نفسه فَاضِلاً، وذلك أشرف المنازل، فلما كانت هذه الأمة خير أمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، رفعهم عن هذه المنزلة ونبه إلى أنه لا يَعُمُّهُمْ بالعذاب، وَإِنْ كَانَتِ الجَهَلَةُ منهم كانوا يقولون: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ (الأنفال: ٣٢).

وقيل: إن الآيات إشارة إلى الأدلة وَنَبَّهَ أنه يقتصر معهم على الأدلة، ويصانون عن العذاب الذي يَسْتَعْجِلُونَ به في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ...﴾ (العنكبوت: ٥٤).

٩- خصائص "آية" الرسالة الخاتمة

إنَّ خطاب الرسالة الخاتمة للبشريَّة في فلسفة المعجزة "الآية" قد اختلف في أسلوبه وظاهره ومضمونه، فقد جعل الله ﷻ نبوة محمد ﷺ ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وموضوعها، وكأن البشرية قد هيئت لاستيعاب مفردات الخطاب النهائي الموجه لها من الخالق، والذي يتعرض فيه لتفصيل مفردات البنية الداخلية لفلسفة "آيات" الأنبياء في قُدْرَةِ البشر -بعد الرسالة الخاتمة- على الربط بين آيات الكون وسُنَنِهِ المَنْظُورَةِ مع آيات الكتاب الكريم المقروءة، ويُلاحَظُ هذا في نوعية الخطاب القرآني حين يحاول الإنسان في عصر خاتم الأنبياء أن يَهْبِطَ بنفسه من المستوى التجريدي الذي أُرِيدَ له، ويبدأ يطالب صاحب الرسالة الخاتمة بالإتيان بآيات حِسِّيَّةٍ قد تَقُودُهُ إلى أن يؤمن بالغيب المطلق، فإذا بخالقه يُحَوِّلُ قِبْلَةَ تفكيره إلى وِجْهَةِ التجريد قال ﷻ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٠٨)؛ ليرتقي به ويَسْمُوَ في تطوير أدوات النظر والتأمل والتفكر لديه في أرجاء الكون وسننه الثابتة لتطوير بناء علاقة بين المسخر والمسخر له، وكأن الكَوْنَ وَسُنَنَهُ آياتٌ مُعْجِزَاتٌ معروضة للإنسان يتأمل في معانيها الظاهرةِ والباطنةِ ليسخرها في عُمْرَانِ الكون وصالح ما ومن فيه، فيقول ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الأنعام: ٣٤-٣٩)، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم

مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الأنعام: ٨-١٤)، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الجاثية: ٢٥-٣٢).

لقد نقل السيد رشيد رضا عن قاموس الكتاب المقدس معنى العجائب قوله: "عَجِيبَةٌ: حَادِثَةٌ تَحْدُثُ بقوة إلهية خارقة لمجرى العادة الطبيعية لإثبات إرسالية من جرت على يده أو فيه، والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة -لا ضدها- تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بمعاكستها، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي... ويُنَاطُ فِعْلُ العجائب بالله وَحْدَهُ أو بمن سمح له بذلك."[1] إنَّ خَتْمَ النبوة بآية "معجزة القرآن الكريم" يستبطن معاني ختم معجزات الأنبياء الحسية، فلم يعد البشر بحاجة إلى رؤية كرامات أو آيات على أيدي أَحَدٍ من البشر بعد محمد ﷺ، وهذا كما بين الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد،[2] كيف ارتقى التشريع الديني بارتقاء نوع الإنسان في الإدراك والعقل كارتقاء الأفراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة حتى بلغ رشده واستوى،

(١) رضا، **الوحي المحمدي**، مرجع سابق، ص٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٦ وما بعدها.

وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية العليا "هداية القرآن" بعد أن كان لا سبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا ما يُدْهِشُ حِسَّهُ ويُعْيِي عقله من آيات الكون "يعني أنه بلغ هذا الرشد في جملته واستعداد كثير من أفراده لا كلهم ولا أكثرهم"، ثم بين أن سُمُوَّ عقل الإنسان وسلطانه على قُوَى الكون الأعظم بما هي مسخرة له تُنَافِي خُضُوعَهُ واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه وعلته، فأعتقد أنه من قبيل السلطان الغيبي الأعلى لِمُدَبِّرِ الكون وَمُسَخِّرِ الأسباب فيه، فكان من رحمة الله فيه أنه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جِهَةُ الخُضُوعِ وَالاسْتِكَانَةِ، فأقام له من بين أفراده مُرْشِدِينَ هَادِينَ، وَمَيَّزَهُمْ من بَيْنِهَا بِخَصَائِصَ فِي أنفسهم لا يُشْرِكُهُمْ فيها سواهم، وأَيَّدَ ذلك زِيَادَةً في الإقناع بآيات باهرات تَمْلِكُ النفوس، فيصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، ويَنْبَهِرُ لها بَصَرُ الجاهل فيرتد عن غَيِّهِ.

١٠- إذن، آية الرسالة الخاتمة هي "القرآن"

فقد جعل الله ﷻ آية آخر أنبيائه ومُرْسَلِيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ القرآن الكريم ليترك للبشرية مسؤولية التفكر، والتدبر، والتأمل، والنظر في اكتشاف حقائق الأمور في مختلف الأزمان والعصور قال ﷻ: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٠-٢٢)، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (البقرة: ٢٢)، ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الروم: ١٩-٢٤).

وهنا تظهر مفردات الجمع بَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ "قراءة الوحي والكون" في آيات عديدة توجه نَظَرَ وَفِكْرَ الإِنْسَانِ في منظومة الرسالة الخاتمة التي جعلت من تلاوة الكتاب الخاتم مع قراءة الكون وسننه الثابتة (مِنْ خَلقِ اللَّيْلِ والنهار، والحياة والموت، وغيرها...) أدوات ناظمة لفكر الإنسان المستخلف في مراحل سموه لخالقه في تحقيق مقاصد الخلافة والاستئمان وحفظ العهد، فالآية في الرسالة الخاتمة تأخذ من ثبات السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ واستقرارها أَدِلَّةً قَاطِعَةً على الخلق في التدبير والعناية لا خَرْقَ السنن، ولا يُقصد للعقل الإنساني بمواجهة الآيات المُبْهِرَاتِ أَنْ تَشُلَّ طاقته ويستسلم، بل المراد تفجير طاقاته وبَعْثُهَا وإحياؤها؛ ليكون قادرًا على التَّعَقُّلِ، والتَّدَبُّرِ، والنظر، والتفكر، والفهم، والتفسير، والتأويل، والاجتهاد، والإِبْدَاعِ، فهذه الوظائف كُلُّهَا تحتاج إلى عَقْلٍ صَحِيحٍ سَلِيمٍ حرٍّ غير عاجز.

فنجد الآيات القرآنية توجه إلى الغيب لا لشل العقل، بل لتحريكه وتشغيله ومعرفة خضوع هذا الغيب كله لذات الخالق العظيم الذي يخضع هو له، وأن العلاقة بينهما مُنَظَّمَةٌ بِدِقَّةٍ وَمُهَيْمِنٌ عليها، فلا ينبغي له أن يخشى الطبيعة ويَهْرُبَ من المجهول أو يَعْبُدَهُ، بل المطلوب أن يعمل على فهمه والكشف عنه بآيات الكتاب، أما الكَوْنُ فهو ليس مَصْدَرًا لِانْبِهَارِهِ وَإِخْضَاعِهِ، بل هو ميدان لفعل العمران الذي هو جوهر عملية الاستخلاف.

ونخلص مما سبق إلى: أن عملية الخلط بين المفاهيم القرآنية مع مصطلحات بشرية غير خاضعة للمنظومة نفسها لها خطورتها في التعامل مع المفهوم القرآني، فوفقًا لصفة الإطلاق التي تتمتع بها هذه المفاهيم التي تستمدها من مصدرها "الله"، فإن دخول أي مفهوم نابع من غير مصدرها يكون مُحَمَّلاً بِمُسَلَّمَاتٍ تختلف عن مُسَلَّمَاتِهَا أَمْرٌ فيه تَفْتِيتٌ لهذه المفاهيم وَتَلبِيسٌ لِمَعَانِيهَا، بل وَبَتْرٌ لها، فمجرد إحلال مفهوم غريب عنها محل واحد منها، أو غرس مفهوم من غير ذاتها، يفقد هذه المنظومة أبعادها المتكاملة، ويُنْشِئُ وَضْعًا لا يعبر عن محتوى

المنظومة، وهذا ما ظهر في موضوع المعجزة والآية، فعندما استبدل علماء الكلام والفلاسفة المسلمون مصطلح "معجزات الأنبياء" بالمفهوم القرآني "آيات الأنبياء"، أدى هذا إلى استدعاء موضوعات أخرى تخالف مَنْحَى وَغَايَاتِ وَمَقاصِدِ القرآن الكريم من مفهوم "آية" التي تَسْتَبْطِنُ مَعَانِيَ الارتقاء بالبشر إلى مستوى التجريد في دراسة وربط آيات الكون وسننه مع آيات كتاب الله ﷻ، وبذلك تتحقق معاني خاتمية النبوة والرسالات وآياتها؛ حيث يصبح الإنسان المستخلف قادرًا على الربط بين الآيات الحسية الكونية والمعنوية القرآنية من غير حُضُورٍ نَبَوِي مباشر.

فلم يستخدم القرآن الكريم لفظة معجزة، إنما الكلاميون هم أول من اصطلح لفظة معجزة، لاختلاف آرائهم حول حقيقتها وشروطها، وقد تعرض القاضي الباقلاني لذلك وهو شَيْخُ مُتَكَلِّمِي الأشاعرة. وإن في استخدام مصطلح "المعجزة" بوصفه بديلاً أو مُرَادِفاً لمفهوم "آية"، فقد تحول منحى المنهج الفكري الإنساني في التعامل مع القضيَّة الكليَّة إلى مستوى آخر تمامًا، فقد استدعى هذا إلى ربط المعجزة بالسحر بدلاً من ربط آيات الأنبياء بآيات الكون وآيات القرآن الكريم، مما أدى إلى هبوط المستوى الإنساني لا ارْتِقَائِهِ.

كما أنَّ الخلط بين آية النبي ﷺ، وهي القرآن الكريم، ومعجزات موسى، وعيسى وغيرهما من النبيين، فمعجزات السابقين خاصة سيدنا موسى وعيسى معجزات حسية دلت على توقيت الرسالة، وقد أخضع الله ﷻ هذه المعجزات لنوع من الارتباط بين التكذيب بها بعد أن يطلبها القوم، ويَسْعَوْنَ إليها وهلاك تلك الأمم وهي بحد ذاتها تخويف، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ (الإسراء: ٥٩)، في حين أن القرآن الكريم كان بشيرًا ونذيرًا، وليس مخوفًا بحيث يشل الطاقات العقلية البشرية، كما أن نزول المعجزات والآيات التسع على موسى، وآيات عيسى كذلك ارتبط بتشديد الشريعة.

فكأنه ﷻ حين لم يربط بين نزول المعجزات التي طلبها بنو إسرائيل على

موسى وعيسى، كأن التشديد في التشريع، وإخضاع بني إسرائيل في المرحلة المُوسَوِيَّةِ إلى الحاكمية الإلهية كان بديلاً عن عذاب الاستئصال، فمن هنا كان من قتل نفسًا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا، فلا بد من قتله، ولا يمكن أن ينتقل إلى شيء آخر كالعفو أو الدية مثلاً، وقد نبه القرآن الكريم المسلمين إلى ذلك فقال ﷻ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٠٨).

ولذلك فإن الله ﷻ نص على منع الآيات الحسية عن هذه الأمة فقال ﷻ: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (الإسراء: ٥٩-٦٠)، وحين تحداهم بالقرآن: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨-٨٩)، طالبوه؛ لسخف عقولهم بما هو دون ذلك بكثير: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٦)، ثم أشار إليهم في الآية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (الإسراء: ١٠١)، فهؤلاء لا يريدون إلا أن يذكروا شيئًا يتعللون به؛ لرفض الإيمان بمحمد ﷺ وعدم قبول رسالته، فيقول ﷻ لنبيه ﷺ في سورة العنكبوت: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ

ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٧-٥٢). وفي سورة الفرقان ينعي ﷻ عليهم تكذيبهم لرسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان: ٥)، فيكذبهم ﷻ بقوله: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ﴾ (الفرقان: ٦)، ثم يذكر تساؤلاتهم اللاعقلانيَّة: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ ﴾ (الفرقان: ٧-٩)، ويبين أنه ليس هناك مَنْطِقٌ فيما قالوا، بل السبب الوحيد لرفضهم رِسَالَتَهُ وتكذيبهم بالآخرة وعدم رغبتهم بالإيمان بها لما ستؤدي بهم إلى قضية الجزاء وهم لا يريدونه، ثم يسخر من استغرابهم من أن رسول الله ﷺ بَشَرٌ رَسُولٌ فيُبَيِّنُ ذَلِكَ في الآية: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الفرقان: ٢٠)، ويبدو أنهم قد ضاقوا ذرعًا بهذا القرآن الذي لم يترك لهم شبهة ولا قولاً إلا رده عليهم وأجابهم عنه بما هو أقوى، حتى حين اعترضوا على نزول القرآن مُنَجَّمًا فقد رد الله ﷻ عليهم في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٢-٣٣).

وهكذا تتضافر الآيات القرآنية على قرع أسماعهم بِالحُجَجِ البالغات، لِعَدَمِ إِعْطَائِهِمْ فُرْصَةَ الانْصِرَافِ عن القرآن الكريم بوصفه أَكْبَرَ الآيات وَأَعْظَمَهَا وأهمّها، وأنه لم يُؤْتِ أيَّ نبي أو رسول بآية في مستواه أو مثله. ومع ذلك فلأن الناس سبقت إليهم روايات استقرت في قلوبهم وعقولهم وظنوا أن عَدَمَ نِسْبَةِ مُعْجِزَاتٍ وَخَوَارِقَ حِسِّيَّةٍ إلى رسول الله ﷺ تَقْلِيلٌ من شأنه لما جاء به موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام من الجراد والدم وَالقُمَّلِ والضفادع، وإحياء الموتى أو تطبيب المرضى، أو نحو ذلك من آيات حسية بما فيها من انفلاق البحر وإغراق أعداء موسى، وبالرغم من تلك الآيات المعجزات إلا أنها لم تمنع بني إسرائيل من عبادة العجل الذهبي بمجرد عبورهم البحر الأحمر وبعد أن رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم بأن يطالبوا موسى أن يصنع لهم صنمًا حسيًّا، وذلك لأن تلك المعجزات لم تُخَاطِبْ عُقُولَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ.

هذه كلها أدت ببعضهم إلى أن ينسب معاجز حسية إلى النبي محمد ﷺ، ويؤكد عليها ويشغل الناس بها عن القرآن الكريم، ويَضَعُ رِسَالَةَ القرآن البُرْهَانِيَّةَ، والعقلية المخاطبة للبشرية كلها من طَوْرِهَا العَقْلِيِّ المُرْتَقِي وفي سائر أطوارها العلمية المتقدمة، بحيث يجعلها مُسَاوِيَةً لرسالات خاصة بأقوام أو شعوب مُعَيَّنِينَ، فامتلأ العقل المسلم بتلك الروايات وحاول التوفيق بينها وبين هذه الآيات الصريحة القاطعة التي لا تحتمل تأويل بأن آيَةَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، إنما هي القرآن، والقرآن وحده وَكُلُّ ما رُوِيَ أو نُسِبَ إلى الرسول ﷺ لا بد أن يخضع للقرآن ويُهَيْمِنُ القُرْآنُ الكَرِيمُ عليه، وإلا فإن العقل المسلم يتحول إلى مَنَمَّةٍ لِلخُرَافَةِ ونحوها، ومن هنا كان موقف القرآن صارمًا، وموقف علماء الأمة لا بد أن يكون بصف القرآن وإلى جانبه، ويصدق على كل المرويات بالقرآن المجيد، ويكفي المؤمنين ويكفي رَسُولَ اللهِ ﷺ هذه المُعْجِزَةُ الكبرى الدائِمَةُ الخالِدَةُ، والله أعلم.

١١- الرسالة الخاتمة وخصائصها

أ- الكتاب المحفوظ بحفظ الله له من داخله، وبمقتضى نَظْمِهِ وأُسْلُوبِهِ وإِعْجَازِهِ، في حين أُوكِلَ حِفْظُ الكُتُبِ الأخرى السابقة إلى أحبار تلك الأمم ورَبَّانِيهَا، الذين نَسُوا وَحَرَّفُوا وَضَيَّعُوا.

ب- جعل السنة النبوية سُنَّةً مُتَكَامِلَةً تَشْتَرِكُ في حفظ معانيه أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته؛ لتتكامل مع القرآن الكريم بيانًا له وتطبيقًا لما جاء فيه، والقرآن يصدق عليها ويهيمن.

ت- أشرك الشَّارِعُ الحَكِيمُ المُكَلَّفَ نَفْسَهَ في العمليات التشريعية، وذلك بتشريع الاجتهاد الإنساني، فصارت الشريعة منكم لا عليكم، وغير مفرضة من خلال الخوارق والمعجزات والإكراه بكل أنواعه، فاحْتُرِمَ العَقْلُ الإِنْسَانِيُّ وأُعْطِيَ نَصِيبَهُ وما يستحقه من المشاركة واحتج بالرأي، ووُضِعَتِ الضوابط لضبط مشاركتهما في العملية التشريعية التي تمثلت بالأدلة العقلية والثانوية والمختلف فيها؛ ولذلك استحقت هذه الشَّرِيعَةُ البَقَاءَ والخُلُودَ؛ لشمولها وعمومها، وقدرتها على الصلاح لكل زمان ومكان.

خاتمة: السنَّة المحمديَّة خلاصة سنن الأنبياء وتجاربهم

فقد مثل الأنبياء في حياة البشر قِيَادَاتِ هِدَايَةٍ وَبُنَاةِ وَعْيٍ وَرُشْدٍ، فكأن الكون كله بيت واسع هُيِّئَ لسُكْنَى الإنسان، والأَنْبِيَاءُ كُلٌّ منهم (بتجاربه الخاصة مع قومه في إطار زمانه ومكانه) يضع على هذا الجزء من البناء الذي يمثل غرفة القيادة والهداية شيئا، ويَسُدُّ في هذا البيت الفسيح ثَغْرَةً، ويُعَمِّرُ جانبًا من جوانبه بقومه أو أتباعه، ثم تختم الرسالات والتجارب النبوية عبر العصور بخاتم النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ ليكون للعالمين -كلهم- نذيرًا فيكتمل بناء البيت على يديه، ويتكامل عدد ساكنيه، ويتم مفهوم خلافة الإنسان بنوعه

الإنساني، وبإنسانيته في الأرض بجملتها؛ ذلك لأنَّ النبوات تدرجت مع نمو البشر، ورافقت في تصاعدها مَسِيرَةَ وَنُمُوَّ العَقْلِ البشري تَهْدِيهِ، وتُرْشِدُهُ بقدر طاقته واحتماله ونُمُوِّهِ، فالعقل البشري في بَادِئِ الأمر كان عقلاً جُزْئِيًّا أَحْيَائِيًّا -كما مر- في نظره إلى الحياة والأحياء، وأعانه الله ﷻ أن يتعلم الأسماء، ليستطيع تَصَوُّرَ الجُزْئِيَّاتِ وَإِدْرَاكَهَا، وليتمكن بعد ذلك من الربط بينها، وقد يدرك في مرحلة تالية تأثير تلك المفردات في دوائرها وأُطُرِهَا، ولكن لا يستطيع أن يجمع بينها، أو يربطها بأصولها ويكتشف علاقاتها دون هداية الله له، ولذلك كان الإنسان القديم كثيرًا ما يعبد تلك المفردات أو الظواهر -كما أشرنا- إلا أن تأتيه هِدَايَةٌ من الله ﷻ عن طريق الأنبياء تُنْقِذُهُ وَتَهْدِيهِ، وقصة ابني آدم، ثم نموذج إبراهيم عليه السلام في مرحلة البحث منبهات على هذه الحالة.(١)

ولقد شَكَّلَ رَصِيدُ التجارب الإنسانية المُتَعَدِّدَةِ المتنوعة المُشَرَّبُ بِتُرَاثِ النُّبُوَّاتِ خِبْرَةً تَارِيخِيَّةً ساعدت على تكوين، وتطوير العقل الإنساني، وتمكينه من تلبية حاجاته الحياتية في ظروفه المتغيرة. وقد هيأ ذلك كله -فيما بعد- لقبول مَبْدَأ تَلَقِّي الشِّرْعَةِ وَالمِنْهَاجِ، فقد كانت أَشَدُّ العَقَبَاتِ أمام الإنسان لتحقيق مفهوم "الخلافة" عَدَمَ قُدْرَتِهِ على الحصول -بِهِدَايَةِ عَقْلِهِ فقط- على المنهج الموضوعي الكامل من داخله، سواء أكان منهجًا لتفكيره أو لمعرفته أو لتحديد علاقته بالكونِ والحياةِ وخالقِهِ وخالِقِهِمَا تحديدًا دقيقًا، أو كان لسوى ذلك.

فَطَبِيعَةُ الإنسان، وَوَضْعُهُ العَقْلِيُّ والنَّفْسِيُّ، ومَحْدُودِيَّتُهُ، ونِسْبِيَّةُ تَفْكِيرِهِ وخبراته المحدودة بعوامل الزمان والمكان والبيئة المحيطة به، كُلُّهَا لا تسمح له بالتجرد التام الذي يُمَكِّنُهُ من وضع المنهج المعياري الثابت لتفكيره، ومعارفه،

---

(١) الأسماء تعبر عن أشياء ومعان تشترك في سمات عامة، والأسماء تميز مفردات المعرفة، والأسماء هي المداخل الأساسية للسعي في عالم المعرفة، وإدراك الأسماء هي الخطوة الأولى في بناء العلم البشري اجتماعيًّا كان أم طبيعيًّا. وانظر الدراسة القيمة للموضوع التي قدمها:
- الدمرداش، محمد فرج. **وعلم آدم الأسماء كلها**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

وتصوراته، وعقيدته، ونُظُم حياته، وتشريعاته من داخله، فَالضَّعْفُ وَالوَهَنُ والنَّقْصُ العلمي والنسبية تَحُدُّ من قُدْرَتِهِ على تحقيق ذلك، ولقد تمكن الإنسان في الماضي والحاضر من وضع جملة من القوانين والقواعد، وبنى كثيرًا من المعالم الحضارية، لَكِنْ عَجْزُهُ وعدمُ قُدْرَتِهِ على الوصول لأسباب الهداية والأَخْذِ بها، وإِدْرَاكِ بُعْدِ الغيب في الواقع على الوجه الصحيح، وَفَهْمِ عَلاقَتِهِ به وبالوجود كان وراء انْهِيَارِ كَثِيرٍ من الحضارات وتراجعها، ذلك أن منهج العلم والعمل في هذا الكون الصالح لتزويد الإنسان بالهداية المطلوبة لا يمكن أن يأتي به بشكله المُتَّصِفِ بالصحة المطلقة إلا خَالِقُ الإنسان والكونِ والحياة، وهو اللَّهُ ﷻ، فالإنسان لا يستطيع أن يجعل من نفسه مصدرًا لمعرفته -كلها- أو بكل أنواعها، فهناك مَعَارِفُ لا بد أن تأتي للإنسان من مَصْدَرِهَا المُتَعَالِي المتجاوز للإنسان، فليس الإنسان سَيِّدَ الكون المُطْلَقَ أو خَالِقَهُ، بل هو مُسْتَخْلَفٌ فيه.

ومن هنا كانت سُنَّةُ وَسِيرَةُ رسول الله محمد ﷺ تمثل نِبْرَاسًا للبشرية في كونها التجربة الكبرى المشتملة على تجارب سائر النبيين والمُرْسَلِينَ، وسُنَّتُهُ وسِيرَتُهُ هي السنة الكبرى والسيرة الشاملة، فَسِيرَتُهُ وَسُنَّتُهُ تُمَثِّلُ كُلَّ سُنَنِ وَسِيَرِ الأَنْبِيَاءِ الذين سبقوه، فنرى فيه نوحًا وصَبْرَهُ ومُثَابَرَتَهُ، وإبراهيم وجِهَادَهُ وتَبَتُّلَهُ وطاعَتَهُ، وموسى وكِفَاحَهُ وحِرْصَهُ على قومه، وعيسى وزُهْدَهُ وكِفَاحَهُ لربط قومه بحقائق الدين، لا بمظاهره وقُشُورِهِ، فالقرآنُ خُلاصَةُ الوحي الإلهي، والسُّنَّةُ خُلاصَةُ سُنَنِ الأنبياء وتجاربهم مع أقوامهم قال ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ (الأعراف: ٣٥). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ (المؤمنون: ٥١)، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ (المائدة: ١٩)، ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ (الأحقاف: ٩-١٠)، ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا

﴿يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأحقاف: ٣٥).

فالقرآن والسنة -بهذا الاعتبار- قادران على التمكين لِقَوَافِلِ الساجدين من البشر، وحمايتهم من محاولات إِبْلِيسَ وحِزْبِهِ في ضَمِّهِمْ إلى مَوْكِبِ الرافضين للسجود؛ من هنا تُصْبِحُ القِرَاءَاتُ التَّجْزِيئِيَّةُ للكتاب وللسنة قراءاتٍ خَطِرَةً إذا لم تُرْبَطْ بالكُلِّيَّاتِ والقِيَمِ والمَقَاصِدِ العُلْيَا القرآنية، بحيث تَرْبِطُ السُّنَّةَ بِالكِتَابِ رَبْطًا دقيقًا مُحْكَمًا لا يسمح بقيام أي تَنَاقُضٍ أو تعارض أو تناسخ بينهما، ويجمع بينهما في وَحْدَةٍ بِنَائِيَّةٍ لا انفصام لها؛ ولذلك فإن القرآن حَافِظٌ لِلسُّنَّةِ والسيرة بحيث لو فُقِدَ الإِسْنَادُ فإن القرآن كَفِيلٌ بالتنبيه إلى السنة والدلالة عليها، ومن هنا فإن حِفْظَهَا الحَقِيقِيَّ يَعْتَمِدُ على القرآن المجيد، وَكُلُّ مَا وَرَدَ عن مُتَقَدِّمِي علمائنا مما يدل على خِلافِ هذا فإنه مما يَسْتَحِقُّ النِّقَاشَ.